مذاهب وشخصيات

برتراند راسل الإنسان

تأليف

رمسيس عوض

الإهداء

الى سيادة رئيس الجمهورية

الى بطل السلام أهدى حديثى عن رائد السلام .

الى رجل يفيض قلبه بحب الخير والانسان أهدى
حديثى عن رجل يجيش فؤاده بحب الخير والانسان .

المؤلف
رمسيس عوض

مقدمة

بقلم الاستاذ محمد عطا

لقد سبق للدار القومية للطباعة والنشر ان نقلت أغلب مؤلفات الفيلسوف العالمى « برتراند رسل » الى قراء العربية ، واليوم نقدم اليهم ترجمة لهذا الرجل العظيم تحدث فيها المؤلف رمسيس عوض عن حياة برتراند رسل منذ نشأ لى يومنا هذا ، ولم يقف الكاتب عند مجرد السرد بل انه حلل كثيرا من مواقفه ، واستعرض العوامل التى أحاطت بهذه المواقف .

ان القارىء سيرى فى هذا الكتاب افكارا ثائرة لرسل قد لا تتفق وأفكارنا وتقاليدنا ولكن الامانة العلمية حدت بالمؤلف الى أن يذكرها حتى يلم أبناء العربية بأفكار هذا الفيلسوف الماما كاملا ، ويعيشوا معه الحياة التى عاشها والصعاب التى صادفها ، والمشاق التى احتملها فى سبيل افكاره المتحررة .

ان برتراند رسل له آراء ثورية فى التربية، وفى الفلسفة وفى الاجتماع وفى السياسة فهو مثل العالم الشجاع الذى يبدى الرأى الذى يعتنقه وان اسخط عليه الرأى العام .

ان برتراند من العلماء القلائل الذين نذروا انفسهم لخدمة السلام والقضاء على الحروب ، ورفاهية البشرية .

انه ما زال يناضل الى اليوم وان تقدمت به السن ، وطال به العمر ويكفى هذا لتقدير هذا الرجل العظيم الذى لم يلق السلاح ولن يلقيه ما دام فيه نفس يتردد ، وروح تنبض .

لقد حوكم مرات ودخل السجن مرات ، وجرح واهين ولكنه ظل وفيا لآرائه ، مقيما على عهده ، ضاربا المثل فى الشجاعة الأدبية والثبات على المبدأ .

والمكتبة العربية ضنينة بالمؤلفات عن برتراند رسل وخاصة التى تحلل آراءه وتناقشها وتنقل انطباعات هذا الرجل الذى عاش حقبة طويلة ، والتقى بكثير من العظماء وناقش أعمالهم ، وأبدى فيها آراء قيمة ناضجة .

ونرجو أن نكون قد أسهمنا فى نقل صورة حية لحياة هذا الرجل العظيم ، والممنا بآثاره الماما أقرب الى أن يكون كاملا .

والله ولى التوفيق

محمد عطا

برتراند راسل الإنسان

١ ـ سيرته
٢ ـ محاكمته فى أمريكا
٣ ـ دعوته الى السلام
٤ ـ عظماء فى حياته
٥ ـ خاتمة

الفصل الأول

سيرته

نشأته :

ولد برتراند راسل عام ١٨٧٢ من أسرة ارستقراطية عريقة لها شأو عظيم فى الحياة العامة الانجليزية ، وتمتد جذورها لا الى عدة أجيال فحسب ، بل الى عدة قرون خلت . مات والداه وهو فى سن مبكرة لدرجة ان ذاكرته لا تعيهما . وبعد وفاة والديه تولى جده وجدته أمر تربيته . أما جده الذى رباه فهو اللورد جون رسل (١٧٩٢ ــ ١٨٧٨) وهو رجل قام بدور هام على مسرح السياسة الانجليزية فى القرن التاسع عشر ، فقد تولى رئاسة الوزارة فى عهد الملكة فيكتوريا مرتين ، وعاصر نابليون وهو لا يزال امبراطورا .

كان اللورد جون رسل من المشايعين ذوى النفوذ لسياسة حزب « الويجز » المتحرر Whig وهو الحزب الذى تطور فيما بعد واتخذ لنفسه اسما جديدا مازال معروفا به حتى الوقت الحاضر وهو الحزب « الليبرالى » البريطانى (أو حزب الاحرار) . كان هذا الحزب يناهض سياسة حزب . التوريز Tories المعروف لنا فى الوقت الراهن باسم حزب « المحافظين » البريطانى . والحزبان على طرفى نقيض أولهما يدعو الى التحرر والآخر يدعو الى المحافظة . كان موقف « الويجز » ، و « التوريز » من الثورة الفرنسية نموذجا حيا قويا على مدى الخلاف بين سياستى الحزبين المتصارعين ، فبينما كان حزب « التوريز » يناصب الثورة الفرنسية العداء ، كان حزب « الويجز » على قدر من العطف على مبادىء الثورة الفرنسية وأهدافها . ومما يدلنا على هذا العطف أن جون رسل وهو من زعماء « الويجز » البارزين ــ قام بزيارة نابليون بعد اندحاره فى منفاه فى جزيرة البا . ومن الثابت أن اللورد جون رسل من الساسة الانجليز الذين أسهموا بنصيب وافر فى ارساء قواعد الديموقراطية فى بريطانيا فهو المسئول عن تقديم قانون الاصلاح المشهور فى عام ١٨٣٢ الذى سارت بسببه انجلترا بخطا حثيثة على الطريق نحو الهدف الديمقراطى .

تشبع برتراند الغلام بروح التحرر

شب برتراند راسل وترعرع كما رأينـا فى أحضـان عائلة غير محافظة من الناحية السياسية وان كانت شديدة المحافظة فى مجالات الفضيلة والاخلاق . وكانت اسرته الارستقراطية تورث أفرادها الى جانب القاب النبلاء جيلا بعد جيل ، الافكار المتحررة التى دأبت العائلة على تبنيها منذ القرن السابع عشر . ولا شك ان هذا الجو قد اثر على برتراند رسل من الناحية السياسية منذ يفاعته . وهو يقول فى هـذا الصـدد :

« لقد تعلمت نوعا من الايمان النظرى بالمذهب الجمهورى الذى لا يرى غضاضة فى السماح للملك يتولى الحكم طالما انه يدرك أنه موظف فى خدمة الشعب يتعرض للطرد اذا ثبت عدم صلاحيته ، وقد كان من عادة جدى الذى لم يكن الاحترام للاشخاص أن يشرح وجهة النظر هذه الى الملكة فيكتوريا التى لم تتحمس لها » (١) .

وهكذا نتبين فى جلاء أن برتراند رسل قد نشأ فى بيئة لا تقيم وزنا للملوك أو لنظام الحكم الملكى . والخط السياسى الليبرالى الذى دأبت عائلة رسل على تأييده يتلخص فى الوقوف فى وجه الملوك والنيل منهم كلما سنحت فرصـة لذلك ، ومؤازرتهم فى حالة واحـدة وهى التى يتعرضون فيها لهجوم رجال الدين ، مما يدلنـا على أن كراهية عائلة رسل للملوك لم تفقها سوى كراهيتها لرجال الدين الذين يمارسـون سلطانا زمنيا .

طفولة متقشفة متزمتة غير سعيدة :

من الخطأ كل الخطأ أن نظن أن عائلة رسل كانت تناصب مبادىء الدين الكراهية والعداء فقد كان عداؤها منصبا على رجال الدين الذين يتدخلون فى مجريات الحياة العامة ويمارسون سلطانا سياسيا . ولعل من الغرابة بمكان أن نعـرف أن عائلة رسـل كانت على الرغم من كل ما سبق ذكره ، شديدة التزمت فى مجال الدين والأخلاق والفضيلة . لم تكن طفولة برتراند راسل سعيدة بأى حال من الاحوال فقد تضافرت ظروف شتى على اشاعة الشقاء فى قلبه . كان فى طفولته يقاسى من الوحدة ويعانى من الخجل ، فهو لا يعرف اقرانا له يقضى وقته معهم ، ويصرفه فى اللعب كما يفعل سائر الصبية فى مثل عمره ، فأخوه الوحيد يكبره بسبعة أعوام وهو فارق كبير فى السن . وباختصار كانت طفولته جافة متجهمة لا يشيع فيها مرح الصبية وبهجتهم . وهكذا كتب على برتراند راسل منذ نعومة أظفاره أن يعيش فى وحدة وعزلة .

---

(١) صور من الذاكرة Portraits from Memory ص ٧

ولكن هذه الوحدة النفسية ، والعزلة الاجتماعية لم تكن توجع الصبى وتؤلمه قدر ما كان اسلوب العائلة العقيم فى التربية ينفث التعاسة فى نفسه ، فهو أسلوب فى التربية كما يصوره برتراند راسل فى كتاباته ـ شديد الشطف والغلظة وأشبه ما يكون بنظام اسبرطه التربوى فى ايام الاغريق الذى عرف عبر التاريخ بقسوته البادية وفظاظته الظاهرة وحرصه على النظام اكثر من حرصه على أى شىء آخر .

كانت عائلة راسل على الرغم من ارستقراطيتها ومكانتها الاجتماعية المرموقة تنهج أسلوب التقشف فى معيشـــتها اليومية كما كانت تولى الورع المتزمت ، والتقوى المتشددة اهتمامها البالغ ، فهى تفرض على نفسها نظاما حازما صارما لا تحيد عنه قيد انملة . فعلى الرغم من كثرة عدد الخدم الذين يعملون فى خدمة بيت راسل (كان عددهم ثمانية) الا ان الطعام الذى كان يقدم فيه الى أهله يتصف بالبساطة الشديدة التي تبلغ مبلغ الشظف . فقد كانت العائلة حريصـة على أن يعيش أبناؤها فى جو من الخشونة التى تصنع منهم رجالا يعتد بهم ، فـــلا يخرجون الى العالم منعمين مدللين مترفين . ويضرب برتراند راسل مثلا على هذا التقشف فيقول انه لو كان فى البيت صنفان من الحلوى ، قل « ترتة » تفاح ، و « أرز باللبن » ، كانت العائلة تكتفى بتقـديم « الارز باللبن » لفيلسوف المستقبل وتعمد الى حرمانه من الطعام الاكثر لذة على اعتبار أن أحدهما كاف .

كانت العائلة تصر على أن يستحم برتراند الصبى بالماء البارد على مدار السنة وتفرض عليه التمرين اليومى على البيانو لمدة نصف ساعة فى كل صباح ابتداء من الساعة السابعة والنصف فى حجرة باردة دون اشعال نار المدفأة ثم تصر على أن يشترك مع العائلة فى الصلاة فى موعد لا يتغير قط هو الثامنة من كل صباح .

اضف الى ذلك أن الأسرة كانت تنظر الى الخمور والتدخين على انهما شر مستطير ، وان كانت تضطر الى تقـــديم قليل من الخمر الى الوافدين عليها من الضيوف على انه من مســتلزمات الضـيافة التى لا غنى عنها . والشىء الذى لا ينبغى أن يغيب عن ادراكنا هو أن هذا النوع من التربية الاسبرطية كان سائدا بين قطاع كبير من غلاة المتدينين فى المجتمع .

كان من الطبيعى الا يسعد برتراند الصبى فى هـذا الجو الخانق المتزمت كمـا كان من الطبيعى أن يتمـرد عليه . هذا هو السر فى أن برتراند راسل أوقف فيما بعـد جانبـا من كتاباته الفلسفية لمحاربة الكثير من اسس المجتمع الفيكتورى الفكرية ، وأسلوب حياته . كانت كراهية راسل لأسلوب تربيته الاولى عنيفة جارفة ، فهو يدينه ويدمغه بلا لين أو هوادة . انظر اليه وهو يتحدث عن هـــذا النظام التربوى فيقول : « كانت الفضيلة هى الشىء الوحيد الذى تعلق الاهمية عليه ،

الفضيلة على حســـاب العقل والصـحة والســـعادة وكل مصلحة دنيوية » . (١) والذى لا شك فيه أن ثورته كفيلسوف على التقـاليد وقواعد الاخلاق السائدة فى المجتمع الفيكتورى مرتبطة ارتباطا وثيقـا بظروف نشأته الأولى بل هى فى واقع الامر رد فعل طبيعى لها . ولكن ثورته على أخلاقيات المجتمع الفيكتورى التزمت لم تتجاوز بحال من الاحوال حدود الفكر الى مجالات العمل . والدليل على ذلك ما كتبه برتراند راسل فى عام ١٩٣٢ فى مقال يحمل عنوانا (فى مدح الكسل) :
« لقد نشأت شأنى فى ذلك شأن معظم الجيل الذى أنتمى اليه على المثل القائل بأن « اليد البطالة نجسة » ، ولمـا كنت طفـلا يتحلى بأسمى الفضائل ، كنت أصدق كل ما كان يقال لى . واكتسبت ضميرا ما زال يدفعنى الى العمل الشاق حتى اللحظة الراهنة . ولكن على الرغم من ان ضميرى لا يزال يسيطر على «أفعالى» الا أن « آرائى » قد اجتاحتها ثورة » (٢) .

تمرد راسل بفكره على البيئة التى شب فىأحضانها ودمغها بحكمه القاسى عليها بأنها بيئة مريضة تشجع نوعا مريضا من الاخلاق الى الحد الذى يصل فبه هذا التشجيع الى اصابة الذكاء بالشلل .

الطريق الى السعادة :

ظهر خلاف برتراند راسل مع عائلته فى سن مبكرة حول دراسة الفلسفة فقد كانت العائلة غير راضية عن هذا الاتجاه فيه . وعملت الاسرة كل مافى وسعها لـكى تثنيه عن دراستها ، فـكانت تدأب على السخرية من دراسة الفلسفة والحط من شأنها وتقول له دائمـا فى تهكم . What is mind ? No matter. What is matter? Never mind. (٣)

وضاق الغـلام ذرعا بهذا التهـكم المر على ميوله واســـتعداده الفطرى . وبات يتشوق الى اليوم الذى يتحرر فيه من جحيم البيت الخانق . ورغم أن راسل لم يلتحق بأية مدرسة خاصة أو عامة (فقد توفر على تدريسه فى حداثته بعض المربين الخاصين المرموقين) ، الا أنه لم يكن يكره وحشته وعزلته عن صحبة أقرانه من الصبية بقدر ما كان يكره جو البيت الذى أشاع فى قلبه الابتئاس . وعندما حان اليوم الذى التحق فيه راسل بكلية ترينيتى فى جامعة كامبردج (فى الثامنة عشرة

---

(١) صور من الذاكرة ومقالات أخرى ص ٩
Portraits from Memory and Other Essays
(٢) فى مدح الكسل لبرتراند رسل ص ١ In Praise of Idleness
(٣) هذه النكتة تعتمد أساسا على التورية التى تنطوى عليها كلمتا matter و mind الانجليزيتان فكلمة mind تحمل معنى «العقل» و never mind تعنى « لا نهتم » أما matter فتعنى المادة ، و No matter لا يهم .

من عمره) ، غمرته سعادة عارمة ، واستبدت به نشوة جارفة فقد اسكره الجو الجامعي وانعش روحه منذ اليوم الأول . ولا غرو فى ذلك : ففى الجامعة كان فكره يستطيع الانطلاق والتعبير عما شاء من آراء ومعتقدات دون أن يحملق فيه أحد على انه مختل فى قواه العقلية ، او ينظر اليه على انه مجرم أثيم كما كان افراد عائلته يفعلون . ولم يجد راسل أدنى مشقة فى ان يألف جو الجامعة الذى تلاءمت روحه معه بسرعة فائقة . واستطاع فى اول فصل دراسى له فى كامبردج أن يعقد صداقات وطيدة لم تنفصم عراها مدى الحياة .

وبعد أن تخرج برتراند راسل من الجامعة بتفوق فى الرياضة جاءت مشكلة العمل الذى يقوم بممارسته . أرادت له العائلة أن يشتغل بالسياسة لأن الاشتغال بها كان العمل الذى توارثته العائلة دون انقطاع منذ القرن السادس عشر . واعتبرت العائلة أن فى الخروج على تقاليدها خيانة للامانة التى وضعتها فى عنق سليلها . وبذلت الأسرة من الوان الضغط على راسل الكثير ، ولوحت له فى اغراء انه سيجد الطريق الى السياسة ممهدا ، ومفروشا بالورود ، وبالفعل عرض عليه اللورد دفرين Dufferin وظيفة بالسفارة الانجليزية فى باريس كما عرض عليه جون مورلى John Morley الوزير لأيرلندا وظيفة اخرى . وكاد برتراند راسل أن يلين امام الضغط والترغيب ويقبل العمل بالسلك السياسى (الذى التحق به بالفعل لفترة وجيزة لاتتجاوز بضعة شهور) . ولكن اغراء الفلسفة كان قويا جارفا فلم يستطع مقاومته ، رغم ماكان يتضمنه هذا الاغراء من أغضاب للعائلة . وفى عام ١٨٩٥ عين راسل زميلا بجامعة كامبردج لتدريس الرياضة بها .

رسل يبيع كتب الرياضة ويتجه شطر الفلسفة :

بمجرد أن تخرج برتراند راسل من الجامعة غمره شعور بالاشمئزاز من الاسلوب المتبع فى امتحانات الرياضة فيها لدرجة انه اقتنع بأن علم الرياضة لا يعدو أن يكون ضربا من الأحاجي والالغاز يتطلب التفوق فيه مهارة فى التملص والمراوغة . واقسم رسل بينه وبين نفسه الا يفتح كتابا فى الرياضة بعد ذلك . وقام ببيع كل كتب الرياضيات التى فى حوزته ، وبدأ يتجه باهتماماته شطر الفلسفة فقد احس أن دراسة الرياضة قد خذلت أحلام يفاعته .

كان الأمل يداعب برتراند راسل فى يفاعته فى أن تصل به الرياضة الى التدليل القاطع على الامور واذا بأسلوب الامتحانات الجامعية يخيب أمله ، ويدله على انها تتلخص فى مجرد المهارة والحذق فى التخلص من المآزق عن طريق التحايل والمراوغة . ان السبب الذى حداه الى دراسة الرياضة فى صباه هو اللذة التى كان يشعر بها فى البرهنة على الاشياء

وجبه الذى يجرى فى عروقه للاستدلال العقلى . وكانت ملكة التدليل هذه متأصلة فيه منذ صباه . فعندما كان فى الحادية عشرة من عمره توجه الى اخيه الذى يكبره بسبع سنوات ليتلقى على يديه أول درس فى الرياضة . كانت هندسة أقليدس هى المتبعة حينذاك . وبدأ أخوه الاكبر بالتعريفات وسرعان ما استوعبها عقله . ولما جاء دور البديهيات افهمه اخوه أنه يتعين عليه أن يقبلها على أنها مسلمات لا تقبل الجدل ولا تخضع للبرهنة والاثبات ، فاستاء راسل الصبى واظهر نوعا من الغضب وقال مخاطبا أخاه : « ولكن لماذا ينبغى على أن أعترف بهذه الاشياء اذا لم يكن من المستطاع اثباتها ؟ » فأجابه أخوه : « اذا لم تعترف بها فلن يمكننا الاستمرار فى الدرس » . ولم يحمل الصبى على الاذعان سوى حرصه على أن يعرف « بقية الحكاية » على حد تعبيره ، وخشيته من أن يمتنع أخوه عن الاستمرار فى الشرح . وهكذا اضطر راسل رغم شكه وحيرته الى قبول البديهيات على أنها مسلمات لا تقبل الاثبات أو البرهان .

ومما يدلنا على تأصل الرغبة فى ايجاد أسانيد للبرهنة على الاشياء فى تكوين برتراند رسل العقلى ، أكثر من رغبته فى أى شىء آخر، أنه لم يغضب أو يدركه الاستياء عندما قال له صديقه البروفيسور ج . هـ . هاردى ، أستاذ الرياضة النظرية ، ذات يوم أنه لو توفر له الدليل على أن صديقه الحميم برتراند سيموت فى غضون خمس دقائق لما تردد فى الترحيب بموته للتدليل على صحة مايذهب اليه رغم الالم الذى سيسببه له فقدان صديق عزيز . هذه الحادثة التى لم تغضب رسل مطلقا تدلنا بجلاء على انه يقيم وزنا للمعرفة اليقينية القائمة على التدليل أكثر من اهتمامه بأى شىء آخر على سطح الارض .

وعندما فشلت طرق تدريس الرياضة وأساليب امتحاناتها فى الجامعة فى ارضاء هذه الاستعدادات الاصيلة فيه ؛ اتجه برتراند رسل شطر الفلسفة يبغى منها ماكان يرجوه من دراسة الرياضة . ويقول رسل ان السبب الذى يدعو الانسان الى دراسة الفلسفة يتخذ اشكالا عديدة . ومن أهم الاسباب التى تدفع المرء الى هذه الدراسة رغبته فى فهم العالم . لقد كان هذا الدافع قويا فى الماضى عندما كان العلم والفلسفة يجتمعان فى صعيد واحد . كانت رغبة الانسان فى فهم العالم قوية وذلك قبل أن ينسلخ العلم عن الفلسفة ويصبح له كيان مستقل قائم بذاته . ويرى الفيلسوف أن هناك سببا اخر يدعو الى دراسة الفلسفة يتلخص فى الشك فى الحواس وفى المعرفة القائمة عليها. فعندما بدأ الشك يساور الاغريق فى حقيقة وجود الآلهة على جبل الاولمب التجأ بعضهم الى الفلسفة يحدوهم الامل فى ايجاد ما يعوضهم عن المعتقدات التقليدية التى لم يعودوا يؤمنون بها . ويقول رسل

أن رغبته فى التوصل الى معرفة يقينية تقيم سياجا يحميه من الشك كانت حافزا هاما دفعه الى دراسة الفلسفة . ففى صدر شبابه وهو بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة من عمره عكف على دراسة المسلمات العقائدية الاساسية التى يتضمنها الدين بقصد الوصول الى جوهريات دينية يمكنه الاستمساك بها . ولكن عقله ابى ان يقتنع بأى منهـا . ودعاه فشله فى استخلاص جوهريات دينية يمكنه الايمان بهـا الى الالتجاء الى الفلسفة عله يجد فيها معتقدات تحـل محل المعتقـدات الدينية التقليدية التى نبذها . ولكن الفلسفة فشلت بدورها فى تعويضه عما افتقده من هذه المعتقدات . وبمعنى آخر فشل رسل فى ان يجد فى الفلسفة مايرضى نزعاته الدينية . والان بعد أن اكتملت فلسـفة رسل التى تعتمد على العقل وتمجد التشكك فيما لا يستطيع عقـل الانسان اثباته أو البرهنة عليه ، نجد أنها لا تزعم لنفسها القدرة على اراحة الانسان مثلما تريحه المعتقدات التقليدية . ولكن العزاء الوحيد الذى تقدمه فلسفة رسل للانسان هو حرصها الشـديد على الامانة الفكرية مهما كلفت من ثمن والايمان بأن التشـكك والقلق الفـكرى الذى يجىء فى أعقابه كنتيجة لانعدام المعرفة اليقينيـة ينطـويان على شجاعة أدبية وفضيلة أخلاقية .

مر برتراند راسل بمراحل تطور فكرية واضحة حددت اتجاهاته الفلسفية فقد بدأ باعجابه بفلسفة الفيلسوف الالمانى « كانت » ولكنه هجرها عندما أسقطته كما يقول فى وهدة من الطلاسم الميتافيزيقيـة المحيرة . وعاف عقله الشديد الحرص على الوضوح ، ماانحدر اليـه بسبب فلسفة « كانت » من غموض . وليس هناك أدل على كراهيته للغموض مما كتبه عن نفسه قائلا « اننى أحب التحديد ، وأحب الخطوط الواضحة وأمقت الغموض المستغلق » .

وبعد أن تخلص رسل من أثر « كانت » عليه ، وقع تحت تأثير الفلسفة الهيجيلية فقد أرشده صديقه الحميم ماك تاجارت McTaggart رائد الهيجيلية فى انجلترا الى هذه الفلسفة . واجتذبت الهيجيليـة برتراند رسل اليها لما عرفه عنها من أنها فلسفة ترضى الرغبة فى الايمان عن طريق الاستمساك بجوهريات الدين فى اطار عقلى شديد التعقيد ، لا تحده الحدود التقليدية الضيقة ، فهذه الفلسفة تنتهى الى «المطلق» وهو اسم آخر لله ، كما أنها تصور الكون على أنه وحدة واحدة لا سبيل الى الفصل بين أجزائها . ومما زاد فى تشبث رسل بالهيجلية فى وقت من الاوقات هو ارتياحه للاعتقاد بأن المـادة وهم وبأنه لا وجود للزمان والمكان وبأنه ليس هناك لغير العقل وجود . ويقول رسل ان أثر هيجل عليه استمر لمدى طويل حتى بدأ يقرأ هيجل فى نصوصه الاصلية فروعه

وخيب ظنه أن يصطدم بحزمه من الافكار المضطربة المهوشة التى بدت له مجرد تلاعب بالالفاظ .

وبعد ان هجر برتراند راسل فلسفة هيجل ، استأثر به لبعض الوقت نوع من التصوف الرياضى استمده من أفلاطون الذى استمده بدوره من فيثاغورث . وبعد أن أجرى رسل على الافلاطونية بعض التغييرات التى خففتها ولطفت من حدتها ، آمن رسل كما تؤمن الافلاطونية بأن هناك عالما من المثل كاملا سرمديا لا يعرف التغير ، عالما تعطينا الحواس عنه صورة ناقصة شائهة تنأى عن الكمال، وبأن الرياضة التى تعالج عالم الافكار تتصف بالكمال والدقة اللذين يخلو منهما عالم الحس المتغير الذى نخبره فى حياتنا اليومية . ولكن الامر انتهى ببرتراند رسل الى نبذ هذا التصوف الرياضى ومنذ ذلك الحين ورسل لا يجد رأيا دينيا فى أى مذهب فلسفى يستطيع أن يقتنع به .

برتراند راسل الخنزير الشيوعى : بدا برتراند رسل حياته الفكرية مؤمنا بالاستعمار ، مؤيدا له وكان فى تحيزه للاستعمار متأثرا بسيدنى ويب Sidney Webb . ولكن نوعا مما يطلق عليه المسيحيون « الاهتداء الى الدين الحق » انتابه فى عام ١٩٠١ على وجه التحديد تخلى الفيلسوف على أثره عن كل نزعاته الاستعمارية ونبذها نبذا تاما .

وفى عام ١٩١٨ ، عكف برتراند راسل على كتابة « الطرق الى الحرية » ابان الحرب العالمية الاولى وفرغ من كتابته قبل أن تزج به السلطات الانجليزية فى السجن لدعوته الى السلام وانهاء الحرب بأى ثمن . وفى هذا الكتاب دافع رسل عن الاشتراكية ، واعتبر أن اشتراكية الدولة كما وضعها ماركس ، والفوضوية كما بشر بها باكونين وكروبوتكين ومذهب الاشتراكية النقابية المتطرفة (Syndicalism) كما كان سائدا فى فرنسا ، تكون جميعا دعائم الحرية وترسى أسس المجتمع الجديد الذى كان رسل يرغب فى انشائه على انقاض العالم القديم الذى قوضت أركانه الحرب العالمية الاولى — ولاشك أن رسل تعمد اختيار اسم « الطرق الى الحرية » لكتابه بدلا من « الطريق الى الحرية » حتى يبين أن هذه المذاهب جميعا — وان كانت قاصرة اذا أخذنا كلا منها على حدة — تساهم فى وضع أسس العالم الامثل الذى تطمع الانسانية فى اقامته . وفى هذا الكتاب نجد رسل متحمسا للشيوعية الفوضوية بعض الشىء . والسبب فى عطفه على الفوضوية هو حرصه الشديد على استكمال حرية الفرد واستقلاله وتخوفه من البيروقراطية فى اشتراكية الدولة عند ماركس .

ولكن فى عام ١٩٢٠ زار برتراند راسل الاتحاد السوفييتى لمدة قصيرة ، وتعمد ان يختلط بأكبر قطاع ممكن من الناس حتى يتعرف على

التجربه السيوعية الوليدة . وقابل رسل لينين ومكث معه ساعه . واغتم الفيلسوف لما رآه من مظاهر القسوة .والبطش فى روسيا الشيوعيه ، ومن غلظة قلب زعيمها لينين . وتركت هذه الزيارة القصيرة فى نفسه اسوأ الاثر . لم يرق لينين فى عين برتراند راسل رغم اعترافه الصريح بتفانى الزعيم الروسى الذى لايرقى اليه الشك فى المبدأ الشيوعى وفى رغبته فى الاصلاح . فقد كان لينين يروى لزائره مستضحكا كيف انه كان قبل اندلاع الثورة الحمراء يحرض الفلاحين على الاجهاز على اصحاب الاراضى والاقطاعيين وشنقهم على اقرب شجرة . كان لينين يروى هذه الحادثة مقهقها ؛ كما كان يظهر لذة فى استرجاع هذه الذكريات . ويبدى تسلية وتشفيا ينمسان عن خلوه من العواطف الانسانية ويجعلان بدن الانسان يقشعر . ساء رسل أن يجد أن الكراهية هى القوة الدافعة للينين ورفاقه من الشيوعيين ، ولم ير فى زعيم الشيوعية السوفيتية الا تعصبا أعمى . ويقول الفيلسوف فى هذا المجال أنه استيقن من ان الشيوعيين الذين استولوا على الحكم فى روسيا عام ١٩١٧ تحركهم عاطفة واحدة جارفة مستبدة هى الحقد فاظهر اشمئزازه من أن يكون الحقد أساسا لاى اصلاح اجتماعى .كان لينين ورفاقه قبل الثورة يصبون حقدهم على أعدائهم من الاقطاعيين والبورجوازيين وعلى كل مايعترض سبيل الثورة الشيوعية ، فلما تحقق للحاقدين الاستيلاء على زمام الحكم ، وتصفية بواعث حقدهم القديم ، كان طبيعيا أن يبحثوا عن أشياء أخرى جديدة يصبون عليها حقدهم الاسود الذى أصبح جزءا لا يتجزأ من تركيب جهازهم النفسى .

وهكذا خرج برتراند راسل من روسيا الشيوعية ساخطا كل السخط وشرع يهاجم الشيوعية السوفيتية . واستاء اليساريون فى الغرب من هجومه على التجربة الشيوعية الجديدة التى يعطفون عليها ؛ ونظروا اليه شزرا واعتبروه أجيرا للبورجوازية . واستمر اليساريون الغربيون يناصبونه العداء الى وقت قريب حتى استيقنوا أن الاتحاد السوفييتى لايقيم المجتمع الذى يحلمون باقامته . أما اليمينيون فلم يلتفتوا الى تغير موقفه من الشيوعية وظلوا يذكرون عطفه القديم عليها . وأطلقوا عليه اسم « الخنزير الشيوعى » . وبذلك اصبح رسل موضعا للاتهام والكراهية من كل جانب ولم ينقذه من هذا الموقف العصيب سوى زيارة الى الصين امتدت نحو عام استمتع بها الفيلسوف استمتاعا عظيما فقد راقت له حضارة الصين التالدة واستهوته النزعة العقلية التى تسود هذه الحضارة . ويدين برتراند رسل بالفضل الى هذه الزيارة التى علمته ان ينظر الى الحاضر الانسانى فى ضوء الاحقاب التاريخية السحيقة . وساعده هذا الاحساس بالابعاد الزمنية الشاسعة ان يتخلص من النظرة الضيقة التى تحبس الانسان فى سجن الحاضر بضغائنه واحقاده الصغيرة وآماله المحدودة .

والعجيب فى الامر ان هذه التهم القديمه استمرت لاصقة به الى وقت قريب جداً .

الفيلسوف العظيم لا يتلائم مع أحداث القرن العشرين :

يجد برتراند راسل صعوبة كبيرة فى أن يتلائم مع أحداث القرن العشرين فقد شب وترعرع فى ظل مجتمع له مقدساته وتعاليده الراسخة كالطود الاشم ولكنه يرى الآن بعين الحسرة والألم جل هذه المقدسات الشامخة والتقاليد السامقة تتهافت ثم تزول . أما البقية الباقية منها فتهدده الاخطار من كل جانب ..

ان التغير الذى طرأ على العالم فى القرن الراهن يهول رسل ويفزعه وهو ينظر الى انكماش الحريات فى العالم وتقلصها نظرة ملؤها الحزن والاسى . وهذا طبيعى للغاية فقد نشأ الفيلسوف فى أحضان المجتمع الفيكتورى وثار فى وجه الكثير من قيمه . ولكنه تشرب روحه الديموقراطية المتحررة كما وضع اسسها الفيلسوف الانجليزى جون لوك J. Locke فى القرن الثامن عشر وكما درج القرن التاسع عشر على فهمها . وقد يجوز لنا ان نصف رسل بالارستقراطى المتمرد فهو ولاشك يسعى الى تحطيم الكثير من قواعد الفكر المألوفة فى المجتمع الفيكتورى التى لا تزال مألوفة فى العصر الحديث ، ولكن الذى لاشك فيه كذلك أن التقليد الليبرالى الديموقراطى المتأصل فى المجتمع الفيكتورى يلقى منه كل احترام وينال كل اكبار ، وخاصة بعد أن شاهد رسل العالم المحموم ينزلق فى حربين عالميتين مجنونتين فى مدى قصير . وبعد أن رأى بعينه قلاع الحرية تتهاوى أمام لوثة اللاعقل وأمام معاول الاستبداد والديكتاتورية . وقد ذكر رسل فى حديث تليفزيونى أجراه ودروويات Woodrow Wyatt معلق التليفزيون البريطانى المشهور عام ١٩٥٩ ونشر عام ١٩٦٠ ضمن أحاديث أخرى فى كتاب تحت عنوان « راسل يفصح عما فى خلده(١) »

Russell Speaks his Mind انه كليبر الى عجوز لا يستطيع مطلقا أن يستسيغ الهاوية التى تردت فيها الحريات فى القرن العشرين ـ ويقول رسل فى أكثر من موضع ان الفرد لم يكن فى حاجة الى حمايته من سيطرة الدولة فى اى وقت فى الاوقات مثل حاجته اليها فى العصر الحديث .

يقول برتراند رسل أن التنبؤات التى ذكرها جورج اورويل George Orwell فى قصته المعروفة ١٩٨٤ تتحقق بالتدريج ، وأن العالم عن بكرة ابيه يتوغل فى الظلام الذى صوره اورويل فى هذه

---

(١) نشر هذا الكتاب فى مجموعة كتب ثقافية

القصه . واذا كان العالم لا يدرك حقيقة هذا الموقف فذلك لان الحريات تنكمش بالتدريج ، ولان الناس فى الغرب قد استخف بهم الرضاء عن النفس فظنوا واهمين انهم بمأمن من هذا المصير وتوهموا ان ظلام الديكتاتورية الدامس كما رسمه اورويل . المخيم على الاتحادالسوفيتي لن يصل اليهم بحال من الاحوال دون أن يدركوا ان نفس الظلمة تزحف اليهم وتشملهم بالتدريج . ويقول رسل انه لابد للناس فى الغرب أن ينتبهوا الى أن العالم قد افتقد الكثير من مظاهر الحرية التى كانت تسود اوروبا فى القرن التاسع عشر . فقد اختفت من الغرب حرية التنقل بدون جواز سفر وحلت فكرة الرقابة على الصحف التى لم تكن تخطر على بال أحد فى القرن الماضى . لقد كانت أوروبا تشعراشمئزاز وفزعا عندما تنظر الى استبداد روسيا القيصرية وجورها ؛ وكانت‌تنظر الى القيصرية الروسية واستبدادها نظرتها الى نظام بربرى غير متمدين ويقول رسل أن روسيا الشيوعية ابشع حالا من روسيا القيصرية ولكن ليس معنى ذلك أن يتجاهل الغرب الاخطار التى تهدد نظامه الديمقراطى وحريته التى يفخر بها . ويدلل رسل على الاختفاء التدريجى لكثير من مظاهر الحرية التى كانت معروفة فى القرن التاسع عشر بأن وزارة الداخلية الانجليزية تلجأ الى تطهير أجهزة الدولة ممن تشتبه فى ولائهم وان هذا التطهير يتم سرا حتى لا تثار حوله الضجة ويحاط الرأى العام به علما ؛ كما أنها لا تسمح بالهجرة على النحو الذى كانت تسمح به فى الماضى . اضف الى ذلك انها تقصر الهجرة على حالات قليلة يكون الباعث اليها أسباب سياسية . ويعيب رسل على الحكومة البريطانية مظهرا خطيرا من مظاهر انعدام الديمقراطية يتجلى فى تنحية بعض أساتذة الجامعات من مناصبهم ــ بزعم عدم الكفاءة احيانا ــ ممن تشتبه فى ولائهم السياسى دون أن يتوفر لديها الدليل على صحة هذه الشبهات . ويرى رسل أن العدل يقتضى اقامة جهاز بوليسى منفصل عن جهاز البوليس العادى ، يستهدف اثبات براءة المتهم والعمل على احباط مساعى جهاز البوليس الاصلى ، فليس من العدل أن تسخر الدولة مواردها لاثبات جرم المتهم دون أن تعمل شيئا أو تحرك ساكنا لاثبات براءته . فان أراد المتهم أن يدفع عن نفسه التهم الملصقة به اضطر أن يفعل ذلك على نفقته الخاصة ، وفى كثير من الاحوال يعجز المتهم عن اثبات براءته لما يتطلبه هذا الاثبات من نفقات طائلة أثقل من أن يتحملها كاهله . ولعل هذا يعطينا صورة عن مدى تخوف برتراند رسل من اجهزة البوليس وتشككه منها ، وعدم قدرته فى نفس الوقت على التأقلم مع ظروف القرن المضطرب الذى يعيش فيه .

لم يكن يخطر على بال مخلوق فى انجلترا فى القرن التاسع عشر أن جذور الامبراطورية البريطانية ستتزعزع فى يوم من الايام ولكن أحداث

القرن العشرين زلزلت هذه الثقة الاكيدة فى رسوخ الامبراطورية . ومن بين الافكار الراسخة فى تربة القرن التاسع عشر التى تهاوت فى القرن الحاضر ، الايمان الذى لا يتزعزع بالعلم وبامكانيات التقدم الضخمة . كان القرن التاسع عشر شديد التفاؤل يؤمن بالتقدم المنظم فى العالم بأسره ، وباختفاء الثورات من مسرح الاحداث الدولية وبوقف الحرب تدريجيا حتى يسود السلام والاستقرار أرجاء الارض ، وبامتداد نظم الحكم البرلمانى حتى تشمل انحاء المعمورة . لقد تشرب برتراند رسل الكثير من مظاهر هذا التفاؤل الفيكتورى الهائل ولكن الاحداث فى القرن العشرين اضطرته الى التخلى عن الكثير من أسباب التفاؤل . ولعل ماكتبه عن نفسه يلقى ضوءا على طبيعة التغيرات التى أجراها القرن الراهن فى نظرته الى الحياة : « لقد شببت فى غمار التفاؤل الفيكتورى، ولكن على الرغم من أن التفاؤل السهل السائد حينذاك لم يعد ممكنا ، فان شيئا من الرجاء الذى كان ميسورا آنذاك مازال يداعبنى حتى الان » .

ان برتراند رسل يهوله أن يرى العالم الان على فوهة بركان قد يطيح به فى أية لحظة . لقد فقد الفيلسوف الكثير من تفاؤل القرن التاسع عشر وهو دائب القول على أن العالم ليس بحاجة فى الوقت الحاضر الى المزيد من المعرفة التكنولوجية قدر حاجته الى مزيد من الحكمة والانصات لصوت العقل والتسامح .

الفيلسوف العظيم يتأرجح بين اليأس والرجاء :

نشأ برتراند رسل كما سبق أن ذكرنا فى جو القرن التاسع عشر المتحرر المتفائل • وأخذ عن والديه اللذين كانا من أتباع الفيلسوف « الليبرالى » المعروف جون ستيوارت ميل أيمانه بحقوق المرأة • ولعب رسل نفسه دورا هاما فى تحرير المرأة الانجليزية وحصولها على حقوقها السليبة . وعندما يستعرض الفيلسوف الكهل الان أحداث العالم الحديث يصيبه اليأس تارة ويداعبه الامل تارة أخرى . ونحن نجده يرحب بالتطورات الداخلية فى انجلترا التى يرى أنها استكملت حريتها وديموقراطيتها بمنح المرأة حقها الانتخابى ، كما أنه يرى أن انجلترا قد امكنها تحقيق نوع من الاشتراكية المعتدلة التى لا تتعارض وحريات الافراد الخاصة . والى جانب ذلك يرحب الفيلسوف بالقدر الراهن من التسامح فى مجالات الاخلاق الخاصة الذى يزيد عما كان عليه المجتمع الفيكتورى كما يرحب بارتفاع مستوى المعيشة بين الكادحين وبانخفاض نسبة الوفيات وخاصة بين الاطفال دون أن تترتب على ذلك زيادة عدد السكان زيادة مخيفة مروعة .

ولكن اليأس يتطرق الى قلبه عندما يستعرض الموقف الدولى فعد

كان يأمل فى صدر شبابه ان ينجح الانسان فى تصعية الحـــروب والغاء الفاقة والعوز فى أرجاء العالم كله ، وفى زيادة شعور التسامح والمـودة بين الناس وفى تهيئة أكبر قدر ممكن من الفرص لتنمية المبادأة عنـــد الافراد على أوسع نطاق دون الحاق الاذى بالاخرين .

وأمام هذا الاحســاس اليائس ، يهتف به هاتف الشيطان ـ الذى يبدو له أنه هاتف العقل أيضا ـ أن يتخلى عن السياسة ويطرح مجريات الحياة العامة . ويذكره هذا الهاتف فى ألم عظيم أن مقاليد العالم الراهن فى أيدى كبار ساسته ، فى أيدى دالاس وخروتشوف وماوتسى تونج وانها ليست بيد العاديين من أمثاله من البشر . ان هؤلاء القادة الكبار هم الذين يقررون مصير الانسان ، يقررون له الموت أو الحياة . ورسل لايستطيع أن يفعل شيئا حيال ذلك أكثر من اصدار الكتب التى لايعنى هؤلاء الساسة بقراءتها ، وحتى لو قرءوها لاستسخفوها . ولــكن هذا الهاتف الخبيث اليائس لا يستولى على فكره تماما ولا ينجح فى أن يثنيه عن العمل وفى تثبيط همته لان جانبـــا من عقله يؤمن بأن الســـاسة انفسهم يتأثرون بالرأى العام فى بلادهم وأن الكتب تساعد على خلـق الرأى العام وقد تترك فيه كتبه شيئا من الاثر . وعلى كل حال فرسل يقنع نفسه بأن كتابة الكتب هواية بريئة لاضير منها فهى تبعده عن طريق الزلل والضلال ، ولهذا يستمر فى كتابتها رغم أنه لا يعرف اذا كانت هذه الكتب ستفيد فى شىء أم لا .

الفصل الثانى

محاكمة برتراند رسل فى امريكا

(١)

فى عام ١٩٤٠ خلت وظيفتان لتدريس الفلسفة بجامعة مدينة نيويورك بعد أن اعتزل الخدمة أستاذ الفلسفة ، فى قسم الفلسفة بالجامعة . ورشح برتراند رسل الذى كان يحاضر فى الفلسفة فى جامعة كاليفورنيا حينذاك كى يشغل أحد المكانين الشاغرين . وأرسلت جامعة مدينة نيويورك دعوة الى الفيلسوف المعروف للعمل بقسم الفلسفة بها مدى عام (ابتداء من ١ فبراير سنة ١٩٤١ حتى ٣٠ يونية ١٩٤٢) وقد قابل جميع اعضاء هيئة تدريس الفلسفة ومجلس ادارة الجامعة وشتى المسئولين فيها دعوة الفيلسوف الكبير بالاستحسان والترحيب البالغين . واعتبر الجميع أن فى تعيين برتراند رسل كسبا عظيما للجامعة لم تنعم بمثله طوال حياتها الاكاديمية . وقبل رسل الدعوة فأرسل له رئيس مجلس التعليم الاعلى خطابا يعبر فيه عن شكره وامتنانه لقبوله للدعوة ويؤكد فيه النصر الكبير الذى ينطوى عليه قبول الفيلسوف العظيم للتدريس فى جامعة مدينة نيويورك .

(٢)

وعندما اذيع نبأ تعيين رسل هاجت الدنيا وماجت ، وتعالت الاصوات بالقدح والهجوم عليه فقد ارسل الاسقف مانتج Manning خطابا دوريا نشرته كافة صحف نيويورك قال فيه : « ما عسى أن يقال عن الكليات والجامعات التى تعين لشبابنا ، مدرسا مسئولا للفلسفة ، عرف بتهجمه على الدين والاخلاق ودفاعه عن الزنا بالذات ! » ولم تمض أيام حتى عاد هذا الاسقف الى شن هجوم مقذع على رسل قال فيه : « هناك قوم ممن اضطربت عقولهم وأخلاقهم لا يجدون ضيرا فى تعيين رجل يقول فى كتاباته المنشورة « ليس هناك مقياس للاخلاق خارج الرغبات الانسانية » .

وكان خطاب الاسقف مانتج بمثابة الطلقة التى اعلنت بدء المعركة التى خاضها معارضو رسل للتشهير به وللضغط والتخويف . فقد شنت عليه الصحافة الامريكية أقذع هجوم واتهمته بأبشع التهم واغلظت له الكثير من القول . قالت « التابلت » The Tablet : « أن تعيين رسل جاء كصدمة قاسية ومهينة لكل أهل نيويورك ، ولسائر الامريكان

الحقيقيين . وطالبت الجريدة فى مقال افتتاحى لهـــا بالغاء هذا التعيين ووصفت رسل بأنه أستاذ الوثنية وفيلسوف الفوضوية الاخلاقية فى بريطانيا العظمى .. الرجل الذى أصبح دفاعه عن الزنا كريها حتى انه يقال ان أحد اصدقائه اعتدى عليه بالضرب . أما مجـــلة اليسوعيين الاسبوعية « أمريكا » فأشارت الى رسل بقولها انه « مدافع عن الانحلال الجنسى ضامر ، ومطلق ومتهتك ... وهو الان يلقن الطلبة فى جامعـــة كاليفورنيا سموم الاباحية والحياة المتهتكة المنحلة فى أمور الجنس والحب الدنس وزواج المتعة · هذا الانسان المفسد الذى لم يكن أمينا مع «عقله» و « ضـــميره » والذى يربأ كل انجليزى شريف بنفســـه أن يقيم صلة به » .

وشبه بعضهم الفيلسوف الانجليزى بالحية الرقطاء التى تكمن فى الحشائش وقد أبرق احد معارضيه خطابا لعمدة مدينة نيويورك لاجارديا La Guardia يقول فيه : « لو كان برتراند رسل أمينـــا حتى مع نفســه لاعلن كما أعلن روسو من قبل : « اننى لا أستطيع أن أرى كتابا من كتبى دون أن يقشعر بدنى . فأنا أفسد بدلا من أن أعلم وانفث السموم بدلا من ان اغذى . ولكن العواطف الهوجاء تعمينى ، ولست على الرغم من أحاديثى المهذبة الا وغدا » . وطلب مرسل البرقية من العمدة التدخل لحماية الشباب من النفوذ السيء «لهذا الرجل العبقرى الفرد ، رسول الشيطان الى الانسان » . وعندما ازداد ضغط الرأى العام الهائج على الاوساط الجامعية لاختيارها غير الموفق ، اضـــطر أحد أعضاء مجلس التعليم الاعلى الذى سبق أن صوت لتعيين رســـل بالاجماع بأن يصرح باسفه على هذا التعيين . وبرر قبوله لتعيين رسل فى البدء بأنه لم يكن على علم من قبل بآراء رسل الفاضحة .

ولم تسكت الصحافة عند هذا الحد بل تمادت. فوصفته احدى الصحف وهى جورنال آند امريكان Journal & American بأنه يحبذ شيوعية النساء وحملهن سفاحا وتربية الاطفال كى يصـــبحوا أدوات طيعة لدولة ملحدة . ولم تقف حملات التشهير عند هذا الحد فرغم أن آراء رسل فى الشيوعية السوفيتية معروفة لدى الجميع الا أن أعـــدائه ومعارضيه كانوا يعمدون الى اقتطاف عبارات من كتب له كان قد ألفها فى الماضى دون ذكر للنص أو السياق الذى وردت فيه . وكانوايستدلون بهذه المقتطفات على أنه نصير للشيوعية . وهكذا أصبح الفيلسوف الكبير مضغة فى أفواه معارضيه الذين لم يكتفوا بالتنديد بانحلال خلقه بل اضافوا الى هذا تهمة الشيوعية .

وتقدمت هيئات وجمعيات لا حصر لها تحرص على شئون التربية والتعليم تطالب بطرد الفيلسوف الزائر كما تطالب بطرد جميع أعضـــاء مجلس التعليم الاعلى الذين صوتوا لتعيينه . وصال رجال الدين وجالوا

وانبروا للهجوم على رسل فى خطب حماسية ملتهبة مثيره . وركز رجال الدين هجومهم على نقطتين : (١) ان رسل أجنبى فليس له الحـــق القانونى أن يقوم بالتدريس فى جامعة أمريكية . (٢) ان آراءه فى الجنس تشكل خطرا على الاخلاق العامة وتدفع الى الجريمة .

وهاجمه القس جون شولتز John Schultz فى كلية اسوبس Esopus اللاهوتية قائلا : « ان شباب هذه المدينـــة يتعلمون (على يد رسل) ان الكذب شىء لا وجود له ، كما يتعلمون أن السطو مشروع وله مبررات . وكذلك النهب والسرقة . وهم يتعلمون كما تعلم ليوب وليبولد (١) فى شيكاغو أن الجرائم الفظيعة غير الانسانية مشروعة أيضا ولها ما يبررها » . وبالاضافة الى هذا كله ، اتهم رسل بأنه يدعو الابناء لكراهية الاباء والحقد عليهم كما أن تعاليمه تشجع على اراقة الدماء فى سبيل المتعة الجنسية .

واشترك عدد كبير من رجال السياسة فى المعمعة فاحتج واحـد منهم (وهو قاض) على انفاق أموال دافعى الضرائب على تعليم فلسفة فى الحياة تنكر وجود الله وتتحدى الذوق والتربية كما تتعارض تمـاما والروح الدينية التى تميز الامة الامريكية وحكومتها وشعبها .

وقدم احد أعضاء المجلس البلدى فى نيويورك اقتراحا يطلب فيه من مجلس التعليم الاعلى الغاء قرار تعيين برتراند رسل . وفاز هـذا الاقتراح باغلبية أصوات أعضـــاء المجلس البـــلدى (٥/١٦) . ولكن ستانلى ايـزاكس Stanley Isaacs الجمهورى لم يكترث لشــــعور الجماهير الملتهب وانبرى مدافعا عن رسل وعن مجلس التعليم الاعلى . وقد صرح احد أعضاء المجلس البلدى المعارضين لرسل فى اجتماع عام انه سيطلب من المجلس الغاء معونته لعام ١٩٤١ للجامعات فى مدينـة نيويورك وقدرها ٧٫٥٠٠٫٠٠٠ دولار اذا لم يتم طرد رسل وقال انه لو كان الامر بيده لتأكد من ايمان الجامعات بالله أو لاغلق أبوابها . وتوالى الخطباء فى هذا الاجتماع وسب أحدهم (واسمه تشارلس . ا كيجان Charles E. Keegan) رسل سبا قبيحا . وقال آخر انه لو كان نظام الهجرة والجوازات فى أمريكا نظاما دقيقا لما أمكن لهذا الوضيع أن يطأ بقدمه أرض الولايات المتحدة .

---

(١) أوستقراطيان من هواة الاجرام فى امريكا دبرا جريمة قتـــل محكمة دون سبب وكادا أن يفلتا من القصاص لبراعتهما فى ارتكاب الجريمة لو لم يتركا وراءهما أثرا لم يتنبها اليه كان مفتاح القضـــية لرجال الامن .

(٣)

هال رجال الجامعات فى أنحاء الولايات المتحدة ان يتدخل على هذا النحو اناس لا تربطهم بالحياة الاكاديمية صلة فى مسألة جامعيـــة بحتة : وتحرك حشد من العلماء والاكاديميين يدافعون عن حريةالبحث والاستقصاء العلمي . وهب لنصرة رسل مديرو الجامعـــات وكبـار الاساتذة فى طول البلاد وعرضها وكتب سبعة عشر عالما ممتازا خطـابا لعمدة المدينة يحتجون فيه على « الهجوم المنظم على تعيين برتراند رسل الذى طبقت شهرته الافاق » واستطرد العلماء فى خطابهم قائلين انه اذا نجح هذا الهجوم على رجل الفكر والفلسفة » فلن تكون هنـاك كليـة امريكية او جامعة بمأمن من سيطرة محاكم التفتيش التى يحركهـا اعداء الحرية الفكرية . انها لميزة نادرة لاى طلبة فى أى مكان ان يتلقوا العلم على يد رجل له عقل برتراند رسل ، ويجب على نقاده ان ينازلوه فى شرف على الارض المكشوفة ، أرض النقاش الفكرى والتحليل‌العلمى وليس لهم الحق فى اسكاته بمنعه من التدريس ... والمشكلة التى تعرض لنا الان أجل من أن تقبل المساومة أو التهاون فالمساومة فيهـا تعرض كل الاساس الذى تبنى عليه حياة الجامعة الامريكية للخطر »

وتصدى صفوة العلماء والمفكرين للدفاع عن رسل وعلى راسهم اينشتين Einstein وديوى Dewey وهويتهـد . وقد ذكـر انشتين فى هذا الصدد « أن الارواح العظيمة هى التى تجددائمامعارضة من التافهين والعاديين من الناس ، لانهم لا يستطيعون أن يفهمـوا أن انسانا يمكنه ألا يخضع للعقائد المتوارثة ، وأن يستخدم عقله فى جراة واقدام » .

ولم يكن الدفاع عن رسل قاصرا على رجال العلم والجامعات فقد انبرى للدفاع عنه عدد غير قليل من رجال الدين المستنيرين . والتف تسعة من الناشرين اللامعين حول قضية رسل وأصدروا بيانا يمتدحون فيه تعيين الفيلسوف الكبير ويثنون على مجلس التعليم‌الاعلى‌لتوفيقه‌فى هذا الاختيار . واضاف الناشرون فى بيانهم أنهم لا يدينون بالضرورة بآراء الكتاب والمفكرين الذين يقومون بنشر كتبهم ، ولكنهم يشـــجعون العقول العظيمة ويرحبون بها حتى تتغلب قوى العقل والحجى على‌قوى البغى والجهل والظلام . وكتبت دوروثى تومسون Dorothy Thompson فى المقـــالات الافتتــــاحية لـ « ببليشرز ويكلى Publishers Weekly ونيـــــويورك هيرالد تريبـــــيون New York Herald Tribune تدافع عن خلق الفيلسوف العظيم فقد ذكرت تحت عنوان « اللـورد رسل غير منحل الاخلاق » : « ان أى انسان يعرف رسل يعلم أنه رجل يمتاز بأرفع مراتب الكمال الشخصى والتفوق العقلى » .

وفى اجتماع عام نوه أستاذ الفلسفة السابق بجامعة مدينــــة

نيويورك والذى جاء رسل ليحل محله بأفضاله واياديه البيضاء على العلم والفلسفة . وقارن رسل بسقراط وذكر أن الغاء تعيين رسل سيكون وصمة عار فى جبين مدينة نيويورك تماما كما أصبحت محاكمة سقراط وادانته بزعم افساد الشباب وصمة عار فى جبين أثينا. ووقف اباء الطلبة وأولياء أمورهم فى صف رسل فقد استحسنت جمعية الاباء باجماع الاصوات الخطوة التى خطتها هيئة التعليم الاعلى فى اختيار رسل كأستاذ للفلسفة فى جامعة مدينة نيويورك .

(٤)

وفى وجه التهديد الصارخ ،والغضب العارم الذى اجتاح الرأى العام ، فقد بعض أعضاء مجلس التعليم الاعلى أعصابهم . ولكن البعض الاخر ظل مستمسكا فى شجاعة واستبسال بحق المجلس فى تعيين برتراند رسل دون تدخل أو ضغط أو تهديد . وفى اجتماع عقده المجلس بتاريخ ١٨ مارس أصرت أغلبية الاعضاء على موقفها السابق ، وأكدت تعيين رسل بأغلبية الاصوات (٧/١١) . وهكذا باءت المعارضة بالفشل فى اعتراضها على تعيين الفيلسوف الكبير للتدريس بجامعة مدينة نيويورك . ولكن المعارضة لم تستسلم أو تلق بسلاحها أمام الهزيمة فقد عمدت الى محاربة رسل فى كل الجبهات ، وسعت جاهدة حتى تحول بينه وبين التدريس بجامعة هارفارد التى كانت قد دعته لالقاء سلسلة محاضرات فيها معروفة باسم محاضرات « وليم جيمس William James وذلك فى فصل الخريف الدراسى من عام ١٩٤٠ وفى يوم ٢٤ مارس كتب « توماس دورجان Thomas Dorgan الموكل التشريعى Legislative Agent لمدينة بوسطن الى جيمس ب . كونانت James B. Conant مدير جامعة هارفارد حينذاك يقول « أنت تعلم أن رسل يدافع عن رواج الصداقة والتجربة وحل الروابط التى تقيد السلوك الاخلاقى ، ورجائى أن تلاحظ أن استئجار مثل هذا الرجل ينطوى على اهانة لكل مواطن أمريكى فى ماساشوسيت » .

وفى نفس الوقت تقدم المعارضون لرسل الى الهيئة التشريعية بولاية نيويورك يطلبون منها التدخل لدى مجلس التعليم الاعلى لالغاء تعيينه . وبالفعل تقدم أحد أعضاء مجلس الشيوخ (سيناتور) الى هذه الهيئة التشريعية باقتراح يتضمن اعتبار « ان المدافع عن أخلاق زريبة الحيوانات شخص لا يصلح لان يشغل وظيفة هامة فى نظام التعليم فى ولايتنا على حساب دافعى الضرائب » . ووافقت اللجنة التشريعية بالاجماع على هذا الاقتراح دون أن ينهض صوت واحد للاعتراض عليه .

وكان هذا القرار بمثابة خطوة تمهيديه لاتخاذ اجراءات اشد عنفا واكثر ضراوة ضد برتراند رسل ، وتاديب الاحد عشر عضوا فى مجلس التعليم الاعلى الذين سولت لهم انفسهم المضى فى الغى والضلال ، والاصرار على تعيين رسل غير عابئين بتيار المعارضة الجارف . وقام السيناتورجون . ف . دنيجان John F. Dunigan بدمغ فلسفته ووصمها ووصفها بأنها « تنتهك الدين والدولة والعلاقات العائلية » . وجأر دنيجان بالشكوى من النظريات الملحدة السائدة بين ولاة الامور فى مجالات التعليم فى مدينة نيويورك . واضاف هذا السيناتور أن اصرار مجلس التعليم الاعلى على تعيين رسل رغم كل مظاهر معارضة الرأى العام الشديدة امر يدعو الى القلق . وطالب دنيجان باجراء تحريات شاملة فى نظم التعليم بمدينة نيويورك . واقرت الهيئة التشريعية مقترحات السيناتور دنيجان بعد ادخال بعض التعديلات الطفيفة عليها .

لم تكن هذه الاجراءات فى حقيقة امرها تعدو ان تكون مناوشات مدنيه تمهد للحرب الشعواء التى شنها اعداؤه عليه ، فقد كانت أهم هذه المناورات على الاطلاق تلك التى قامت بها سيدة من بروكلين اسمها « جين كاى Jean Kay » التى ظهرت فجأه على مسرح الاحداث فى مدينة نيويورك دون مقدمات اذ لم يسبق لها أن ابدت أى اهتمام بالشئون العامة . ورفعت هذه السيدة بوصفها دافعة ضرائب قضية فى محكمة نيويورك العليا تهدف الى الغاء تعيين برتراند رسل فى منصب التدريس بكلية المدينة . واستندت هذه السيدة فى عريضة الدعوى الى شيئين : (١) أن رسل أجنبى فليس له ثمة حق فى العمل بالولايات المتحدة . (٢) انه مدافع عن الفسق والانحلال الجنسى واعلنت جين كاى أمام القضاء عن قلقها البالغ عما قد يصيب ابنتها جلوريا Gloria لو انها تلقت العلم على يد هذا الرجل الفاسد . وفيما بعد ، أضاف محامو هذه السيدة اعتراضين آخرين على تعيين رسل ، أولهما أنه لم يجتز امتحان مسابقة كما تقضى بذلك اللوائح . وثانيهما أن السياسة العامة فى الولايات المتحدة تتنافى مع الحاق أى انسان يعتنق الالحاد بوظيفة التدريس .

وكلت مسز كاى محاميا ينوب عنها لدى المحكمة اسمه جوزيف جولدشتين Joseph Goldstein وفى عريضة دعواه وصف هذا المحامى كتب برتراند رسل بأنها « فاسقة وداعرة وشهوانية ونكاحية ومصابة بلوثة الشبق ومشهية للجنس ، لا تقيم حرمة لشىء ، محدودة الافق ، غير صادقة وخالية من أى نسيج اخلاقى » . ولم يقف الامر عند هذا الحد فقد ذكر هذا المحامى أن رسل قام بتنظيم مستعمرة للعراة فى انجلترا ، وأن اطفاله كانوا يقومون بعرض أنفسهم عراة ، كما

ان رسل نفسه اشترك مع زوجته فى عرض نفسيهما عاريين علنا وعلى مرأى من الناس . واضاف المحامى جولدشتين أن هذا الرجل المسن الذى يناهز السبعين من عمره يبدى اهتماما بالشعر الماجن الخليع . ولم يكتف جولدشتين بهذا القدر من التشنيع القاذع فقد ادعى أن رسل يغض الطرف عن الشذوذ الجنسى ، بل الادهى من هذا أنه يقره ويوافق عليه . واخيرا أصدر هذا المحامى حكمه الدامغ على مكانة برتراند رسل بين الفلاسفة فقال :

« انه ليس فيلسوفا بالمعنى المقبول لهذه الكلمة . وهو ليس محبا للحكمة ولا باحثا عن الحكمة ، كما أنه ليس بالمستكشف لذلك العلم الكونى الذى يستهدف تفسير سائر ظواهر الكون عن طريق الوقوف على أسبابها الاولى . وهو فى نظر الشاهد المحلف الماثل امام المحكمة ، بل وفى نظر الكثرة من الناس الاخرين لا يخرج عن كونه سفسطائيا يمارس السفسطة . وهو يقوم عن طريق الحيل الماكرة والالاعيب واساليب الخداع بل مجرد المراوغة ، بمجادلات زائفة لا تنهض على استدلال عقلى متزن . وهو يستخلص نتائج ، لا تستند الى أسلوب حق فى استنباطها من قضايا سليمة . ان كل المبادىء التى يزعمها والتى يطلق عليها اسم فلسفة ان هى الا خزعبلات وقضايا مسفة رخيصة مهلهلة تهدف الى تضليل الناس » .

والغريب فى الامر ان الديلى نيوز نشرت خبرا مفاده أن رافعة الدعوى « جين كاى » قد امتنعت — وكذلك زوجها ومحاميها — عن الافضاء بأية معلومات من شأنها أن تلقى ضوءا عمن يتحمل نفقات هذه القضية .

وفى بدء حملة التشهير لاذ الفيلسوف الكبير بالصمت . وآثر الا يدفع عن نفسه الاتهامات واكتفى بالتعقيب على هجوم الاسقف ماننج المقذع بقوله : « اننى لا ارغب فى الرد على هجوم الاسقف ماننج . ان أى انسان يعقد العزم فى شبابه على الا يفكر والا يفوه بغير الحق على الرغم من كل مظاهر العداء التى تقابله ، وعلى الرغم من التحريف واساءة التصوير ، يتوقع مثل هذه الهجمات وسرعان مايعلم أن أفضل سبيل يسلكه هو تجاهلها » . وقال رسل انه شاء الصمت الذى يكاد يكون مطبقا ، وآثر عدم الاشتراك فى النقاش المحتدم حول تعيينه بجامعة المدينة لانه كان يعتقد أنه ليس هناك ثمة علاقة بين ارائه فى هذا الامر وبين مسألة تعيينه المختلف عليها . ولكنه اضاف أنه يرى نفسه مضطرا الى الخروج عن هذا الصمت أمام وابل الاتهامات الباطلة التى يكيلها له معارضوه فى ساحة القضاء . قال برتراند رسل فى هذا الصدد « ولكن عندما تذاع بيانات باطلة عن أفعالى تتصف بالبهتان الصارخ فى قاعة

المحكمة . اشعر أنه يتعين على أن اكذبها . انني لم انظم مستعمرةللعراة فى انجلترا على الاطلاق ، كما أنه لم يحدث انني وزوجتي قد اشتركنا سويا فى عرض أنفسنا عراة علنا أمام الناس . وانني لم أبد مطلقا اهتماما بالشعر الخليع . هذه الاتهامات أكاذيب مقصودة يجب أن يعرف الذين يوجهونها أنها لا تستند الى أى أساس فى الواقع وسأكون مسرورا اذا اتيحت لى الفرصة أن اقسم اليمين على بطلانها » .

ونظرت هذه القضية فى محكمة نيويورك العليا أمام القاضى ماك جيهان McGeehan وأدلى نكولاس بوتشى Nicholas Bucci بشهادته فى المحكمة كممثل لمجلس التعليم الاعلى وعبثا حاولت المحكمة ان تزج به فى نقاش حول آراء رسل الشريرة الفاسدة أو عدم كفاءته فقد أصر بوتشى أن يقصر شهادته على الجانب القانونى من القضيةالتى تتداولها المحكمة ويتلخص فى اعتبار تعيين رسل فى جامعة امريكية عملا غير قانونى بوصفه أجنبيا عن البلاد . وانكر بوتشى عدم قانونية التعيين . وأكد أنه نص فى القانون غير معمول به ، كما طلب من هيئة المحكمة رفض الدعوى المقدمة اليها . لكن القاضى ماك جيهان أجابه بطريقة تنذر بالشر انه اذا وجد فى كتب رسل مايؤيد صحة الاتهامات الموجهة اليه فلن يقف الامر عند هذا الحد . وهذه الكتب التى أشار اليها القاضى هى التى أوردها المحامى جولد شتين فى عريضة الدعوى التى أقامها برتراند رسل وهى : « التعليم والحياة الطيبة » ، و « الزواج والاخلاق » ، و « التعليم والعالم الحديث » « وما اعتقده »

(٥)

وبعد انقضاء يومين . فى ٣٠ مارس على وجه التحديد ، نطق القاضى ماك جيهان بالحكم . قال القاضى انه أقام حكمه على « أنماط ومبادىء . هى فى واقع الامر قوانين الطبيعة ... الطبيعة التى خلقها الله » وتضمن حكم القاضى الغاء تعيين برتراند رسل فى وظيفة مدرس للفلسفة بجامعة مدينة نيويورك . ووصف القاضى هذا التعيين ، كما وصفه الخطباء من رجال الدين من قبل بأنه اهانة لاهل مدينةنيويورك. واضاف القاضى أن مجلس التعليم الاعلى بتعيينه لبراتراند رسل انما ينشىء فى واقع الحال كرسيا فى الجامعة لقلة الحياء ، كما وصف تصرف هذا المجلس بأنه تعسفى ، طائش ، قائم على النزوات ، وأنه انتهاك صريح للامن العام والصحة العامة والاخلاق العامة . وأيد القاضى حق المدعية فى اقامة دعواها وفى حقها فى استصدار امر من المحكمة بالغاء تعيين المدعو برتراند رسل . وقد اعترف القاضى — كما ورد فى جريدة الصنداى ميرور بأن حكمه كان فى عنفه وتفجره بمثابة الديناميت

واشارت « جريدة الجمهورية الجديدة » الى السرعة البالغة التى اصدر بها القاضى حكمه ، ووصفتها بأنها سرعة تفوق سرعة البشر . وابدى الفيلسوف الامريكى المعروف « جون ديوى » شكه فى أن يكون القاضى قد قرأ بالفعل الكتب التى أوصى محامى الادعاء « جوزيف جولدشتين » المحكمة بقراءتها . كان من الواضح انه يتعذر على أى انسان ان يفرغ من قراءة هذه الكتب ودراستها دراسة وافية فى ظرف يومين ، فما بالك بكتابة تقرير مستفيض عنها كالذى كتبه القاضى فى هذه المدة الوجيزة . وكان من الواضح ايضا أن القاضى ماك جيهان لا يراعى ابسط قواعد العدالة او الذوق ، فقد أصدر حكمه دون أن يكلف خاطره عناء الرجوع الى برتراند رسل نفسه حتى يتأكد من أن الصواب لا يجانبه عند تفسيره لآرائه ، وحتى يتأكد أن فهمه لا يغاير حقيقة قصد الفيلسوف . أضف الى ذلك أنه لم يحاول أن يستيقن من ان رسل نفسه لا يزال يعتنق ذات الآراء التى سبق له ان عبر عنها فى كتب له مضى على كتابتها ما بين ثمانية أعوام وخمسة عشر عاما .

لقد بلغ تجاوز القاضى لحدود الذوق العام الدرجة التى اغفل معها شهادة نيكولاس بوتشى ، ممثل مجلس التعليم الأعلى الذى اصدر قراره بتعيين برتراند رسل . وزعم القاضى أن بوتشى قد ابلغ المحكمة انه لن يدلى بشهادة أمامها . واقسم بونتى على بطلان هذا الزعم ، وانكره انكارا تاما واضاف انه فهم من القاضى ان المحكمة لن تسمح له بالادلاء بوجهة نظر مجلس التعليم الأعلى الا اذا انكر انه طلب من المحكمة رفض النظر فى هذه القضية .

لقد تخلل محاكمة برتراند رسل فى نيويورك الكثير من المخالفات القانونية الصارخة ولكن هذه المخالفات تهون وتتضاءل امام سيل الهجوم الشديد الذى تضمنه حكم المحكمة ضده . ان نص هذا الحكم ان دل على شيء فانما يدل على ما يمكن ان ينحدر اليه القضاء فى دولة تزهو بحريتها وديموقراطيتها ، وخاصة عندما يؤازره الساسة ذوو النفوذ والسلطان ويشدون من عزمه . لقد استطاع القضاء الامريكى فى قضية رسل ان يمسخ الحقائق ويشوهها بطريقة سافرة للغاية . وكان القاضى ماك جيهان يتلمس السبل لادانته بكافة الطرق ومن بينها استشهاده عمدا ببعض الفقرات من كتاباته دون ذكر السياق الذى وردت فيه ، وعرضها بشكل شائه مبتور من شأنه أن يصل الى نتائج وآراء تتناقض تماما وما يرمى اليه الفيلسوف الكبير .

استند القاضى فى اصدار حكمه الذى يقضى بالغاء تعيين برتراند رسل فى جامعة مدينة نيويورك الى ثلاثة اسباب : اولها ان رسل اجنبى . ثانيها أن الجامعة لم تعقد له امتحان مسابقة كما تقضى

اللوائح بذلك ؛ ثالثها ان آراءه فى الأخلاق هدامة وتشكل خطرا داهما على الاخلاق العامة .

ولنبحث الآن ما ورد فى حكم القاضى بالتفصيل بالنسبة لهذه النقاط الثلاث :

بالنسبة للسبب الاول ذكر القاضى ان قانون التعليم الامريكى ينص على انه لا يحق لاى فرد أن يزاول مهنة التدريس فى مدارس الدولة العامة اذا كان لا يحمل الجنسية الامريكية ولكن القانون أباح للأجنبى حق الاشتغال حتى فى هذه المدارس اذا كان يعتزم التجنس بالجنسية الأمريكية . لقد جانب القاضى الصواب فى عدة أمور فيما يتعلق بهذا السبب (أولا) لان القانون ينص صراحة على الاشتغال بمدارس الدولة ولا يشير الى الجامعات فلو طبق هذا النص بالفعل لكان معناه الاستغناء عن خدمة جل الاساتذة الذين يشتغلون بالتدريس فى جامعة مدينة نيويورك لانهم أجانب ، ولانهم لم يتخرجوا فى مدارس تابعة للدولة ثم لأنهم لم يحصلوا على تصريح من السلطات التعليمية قبل التحاقهم بوظائفهم . (ثانيا) لانه ليس من حق القاضى ان يتكهن ، كما فعل ، بأن برتراندرسل لا يعتزم طلب الجنسية الأمريكية، فأمامه ــ كما ذكر ممثل مجلس التعليم الاعلى ــ عام بأكمله يستطيع خلاله ان يطلب من ادارة الهجرة والجوازات أن تمنحه الجنسية الامريكية . (ثالثا) لأن القاضى كان دائب القول أن رسل شخصية فاسدة . وهذا فى الواقع أمر لا يحدده أحد غير ادارة الهجرة والجوازات . ولو كان اتهام القاضى لبرتراند رسل صحيحا لكانت ادارة الهجرة والجوازات قد طلبت منه مغادرة البلاد ، وهذا ما لم يحدث قبل التعيين أو بعده .

اما السبب الثانى فى الغاء تعيين رسل ففحواه ان رسل لم يجتز كما تقتضى اللوائح والقوانين التعليمية امتحان مسابقة يؤهله لشغل الوظيفة الشاغرة . ولاشك أنهذا السبب مجرد ذريعة لا أكثر ولا اقل، فالقانون ينص صراحة على تخويل مجلس التعليم الأعلى سلطة التعيين اذا لم يكن فى الامكان من الناحية العملية عقد امتحان مسابقة للمرشحين للتدريس فى الجامعة . فالأمر اذن أولا وآخرا موكول الى مجلس التعليم الاعلى يقرر ما يشاء على ضوء الظروف والحالات الخاصة بكل مرشح. وفى هذا الصدد ، قال القاضى فى حكمه انه يرفض زعم مجلس التعليم الاعلى بأن عقد امتحان مسابقة لرسل غير ممكن من الناحية العملية ، ووصف هذا الزعم بأنه طائش وتعسفى وأنه يتعارض تعارضا صارخا مع دستور ولاية نيويورك . وعلق القاضى على ترشيح واختيار جامعة مدينة نيويورك لبرتراند رسل بالذات بقوله انه لو كان رسل هو الانسان الوحيد فى العالم الذى يستطيع تدريس الفلسفة والرياضة لجاز تعيينه دون امتحان مسابقة ، ولكن يصعب على المرء أن يصدق

انه لا يوجد امريكي واحد فى سائر الولايات المتحدة على درجة من الكفاءة تؤهله لشغل الوظيفة الخالية عن جدارة واستحقاق . والذى لا شك فيه ان مطالبة القاضى بعقد امتحان مسابقة لرسل اجراء ينطوى على التعسف ، وهو محاولة واضحة من جانب القاضى لايجاد تعلة قانونية يعرقل بها تعيين الفيلسوف الكبير . فلو كان امتحان المسابقة ضروره قانونية لكان معنى هذا ، التخلص من عدد كبير من اساتذة الجامعة فى مدينة نيويورك لعدم قانونية تعيينهم ، ولاستحقت الجهات التعليميه المسئولة توقيع العقاب عليها لمخالفتها الصريحة للوائح والقوانين لسماحها لمثل هذا العدد الكبير بمباشرة التدريس فى الجامعة دون استيفاء مسوغات التعيين القانونية . ولكن الواقع الذى تجرى عليه الجامعات يغاير ما أصدره القاضى ماك جيهان من أحكام اذ انه من الثابت انه يحق لمجلس التعليم الأعلى تعيين من يثق فى قدرتهم على أداء وظيفتهم التعليمية دون الرجوع لاحد وبغض النظر عن كونهم أجانب ، ومع عدم التقيد بالنص الخاص بامتحان المسابقة اذا كانت الظروف لا تسمح بعقده. والكل يعرف أن المعاهد التعليمية العليا فى أمريكا كثيرا ماتستعين بخدمة الاجانب بشكل ملحوظ . ولعل حادثة تعيين الفيلسوف الكاثوليكى المعروف جاك مارتين Jacques Maritain وهى ليست بالبعيدة العهد من تعيين رسل — تدل بجلاء أن تعيين الاجانب فى جامعات امريكا ليس بدعا ، فقد تم تعيين هذا الفيلسوف المشهور على الرغم من انه أجنبى وعلى الرغم من أنه لم يتقدم بطلب الى ادارة الهجرة والجوازات كى تمنحه الجنسية الامريكية . ومع هذا كله لم يفكر أحد فى عقد امتحان مسابقة له ، كما أن احدا من دافعى الضرائب الأمريكان لم يفكر فى رفع قضية ضده لوقف تعيينه . وهذا يدل بشكل قاطع أن المسألة فى حالة رسل لم تكن تعدو أن تكون محاولة من جانب القضاء يعضده الساسة ذوو النفوذ لايجاد الذرائع والمبررات القانونية الشكلية لابطال تعيينه .

أما السبب الثالث والأخير — وهو أجل الاسباب واخطرها جميعا — الذى استند اليه القاضى فى الغاء التعيين فيتلخص فى كون برتراند رسل شخصية منحلة فاسدة . وقد اعترف القاضى نفسه ان هذا السبب الأخير هو أقوى سبب حمله على الغاء تعيين رسل على الاطلاق . وفى الحكم الذى أصدره ماك جيهان ، هاجم أخلاق رسل الخاصة واستعمل فى هجومه لغة عنيفة قاسية فوصمه بأقذر النعوت . واختفت من لغته تماما لهجة الاعتذار التى كانت واضحة عند سرده للسببين الاولين ، فرسل فى نظر القاضى لا يخرج عن كونه رسولا للفسق والانحلال مهما حاول مجلس التعليم الأعلى تبرئته او الدفاع عنه . واكد ماك جيهان فساد شخصية رسل واعتبره بؤرة للعربدة والانحلال ، ورفض أن تقبل

ما أسماه ذريعة مجلس التعليم الأعلى القائلة بأن شخصية رسل وآرائـه أمور لا دخل لها فى الوظيفة التى سيشغلها فى الجامعة اذ أنه سـيقوم بتدريس الرياضة . لم يجد هذا القول مع القاضى فتيلا فقد انبرى للهجوم على أخلاق برتراند رسل والنيل منه ، واستولى على القاضى غضب مقدس وأعلن أن التدريس مهنة تقتضى توفر الخلق القويم فى أمر القائم بها ، كما أعلن أن التدريس لا يقتصر على امداد الطلبة بالمعلومات فالمدرس قبل كل شىء وفوق كل شىء يحتذى وقوة تضىء لغيره السبيل . وهذه الصفات الحميدة لا تتوفر فى برتراند رسل بأى حال من الأحوال .

ويجب ان نذكر فى هذا الصدد ، انصـافا للقاضى ، أنه لم يشأ أن يتعرض لهجوم برتراند رسل على الدين . وكانت هذه هى الناحيـة الوحيدة التى أظهر فيها ماك جيهان سـماحة فى معاملة رسل . وقصر القاضى هجومه على تأكيد فساد شخصيته من ناحية وفساد آرائه الأخلاقية من ناحية أخرى . ومن الغريب أن القاضى امتنع عن سرد أى من الأسباب التى دعته الى شن حملته الشعواء على فساده الشخصى وكان فى نظر ماك جيهان ان مبادىء رسل غير الأخلاقية أشد خطرا على الأخلاق العامة من فساده الشخصى . ولكى يثبت صحة رأيه التجأ القاضى الى كتبه يقتطف منها بعض الفقرات التى تروى ظمأه الى الانتقام دون التعرض للسياق التى وردت فيه وقال ان كتب رسل مليئة بالمبـادىء الداعرة وعفف من أن يذكر القذارة التى تستشرى فيها بالتفصيل .

ان محاكمة رسل تذكر الانسان بمحاكمة سقراط فى أتينا فى القرن الخامس قبل الميلاد . ففى سن السبعين وقف سقراط وقفته المهيبة أمام جلاديه الذين لم يتورعوا عن كيل أبشـع التهم له ، ومفاداها (١) أن سقراط ينكر الآلهة القومية (٢) أنه يدعو للايمان بآلهة جدد من صنعه(٣) أنه يفسد الشباب بتعاليمه المنافية للأخلاق . وقد أثبت لنا الحق خطل هذه الاتهامات فسقراط فى أذهاننا مثل أعلى للفضيلة والايمان بالله .

واذا كانت سماحة القاضى ماك جيهان مع رسل قد جعلته لايتسرع الى الاتجاهات اللادينية فى تفكيره ، أو أن يستغل ماعرف عنه من الحاد ، فانه تعمد أن يؤكد ضده التهمة الثالثة التى حوكم سقراط بمقتضاهـا بشكل مقزز للنفس وهى أن رسل منحل الخلق ويشكل خطرا على الأخلاق العامة . وكما قابل سقراط سلفه العظيم محاكمته برباطة جأش منقطعة النظير ، فقد وقف رسل ثابت الجنان ، كالطود الأشم ، يجـابه التهم الزائفة التى كيلت له زورا وبهتانا دون أن تهتز شعرة واحدة من رأسـه ودون أن يعرف الخوف الى قلبه سبيلا . وهكذا وقف رسل مرفوع الهامة

أمام الديماجوجية التى حاولت أن تظهره بمظهر الفاسق المتهتك ، وأثبت سليل النبلاء أن فرائصه لا ترتعد أمام قوى البغى والظلام ٠

ولكن الأصوات الحرة لم تسكت على هذا الهجوم الشائن فقد كتب جون ديوى عالم التربية المعروف مقالا فى « الأمة » معلقا على القذارة التى يقول القاضى أنها تلوث كتابات رسل « أن الناس — اذا كان هناك مثل هؤلاء الأشخاص — الذين يقرأون كتابات مستر رسل بحثا عن القذارة سيمنون بخيبة أمل » ٠ وأضاف ديوى أن الطريقة التى عومل بها رسل والاتهامات البشعة التى كيلت له تجعل المرء يعتقد أنه لو كان بيد القائمين بالأمر السلطان الكافى لما توانوا عن اضطهاد المناقشات الحرة الناقدة فيما يتعلق بالعقائد والعادات التى يريدون فرضها على الناس قسرا ٠ وكتب البعض معلقا على لغة القاضى التى تحدث فيها عن القذارة وكرسى قلة الحياء بقوله ان هذه الألفاظ لو استعملت خارج قاعة المحكمة لكانت كفيلة باتهام قائلها بالتشهير والقذف ٠

ويبدو أن القاضى كان شاعراً بأن ماجاء فى حكمه من وقائع لا يكفى لتبرير تدخله فى تعيين برتراند رسل فهو أمر تقرره الهيئات العلميـــــة وحدها ٠ لم يكن يكفى القاضى أن يثبت أن آراءه منحلة فاسقة حتى يتوفر لديه المبرر لممارسة الضغط على هذه الهيئات التى خولها التشريع الحرية المطلقة فى اختيار من يشاء من أساتذة الجامعات ٠ ولكنه أشار الى حق السلطات القضائية فى الاعتراض على هذا الاختيار اذا هى رأت أنه ينطوى على انتهاك قانون العقوبات وتدنيس الاخلاق والفضائل العامة والا اعتبر هذا اساءة لاستعمال الحقوق من جانب السلطات التعليمية المسئولة ٠ وذكر القاضى أن من حق دافعى الضرائب أن يتأكدوا من أن أساتذة الجامعة المختارين لا يعبثون بمقدسات المجتمع وقيمه الخلقية ومن واجب الهيئات القضائية أن ترعى هذا الحق وتوليه اهتمامها ٠

وعندما ساق القاضى قانون العقوبات وسرد نصـوصه بالتفصيل ، كان من الواضح أنه يهدف الى اقامة علاقة فى أذهان الناس الذين لم يطلعوا على كتب رسل بين فلسفته وبين التحريض على ارتكاب الموبقات وجرائم الجنس كخطف العذارى واغتصــــابهن والزنا ٠ واستفاض القاضى فى اعتراضه على ما أكده مجلس التعليم الأعلى من أن برتراند رسل سيكرس وقته لتدريس الرياضة فى الجامعة فليس هناك مبرر اذن للتخوف ٠ ورد بأن وجود شخصية رسل فى أى مجال تعليمى ينطوى على خطر داهم وشر مستطير ٠ فلو كان رسل انسانا عاديا لما كان هناك ما يدعو للتخوف والحيطة والفزع ٠ ولكن رسل انسان ذكى موهوب ٠ وحتى لو اقتصر على تدريس الرياضة فسيكون أثره الشخصى كبيرا وسيقع الشباب الغرير المفتون فى شباك شخصيته اللامعة القوية الساحرة ، وسيسعى الشباب لمعرفة كافة ما يتصل به ، وسيعمل على محاكاته ٠



الفليسوف المعاصر برتراند راسل

لقد كان القاضي يتذرع لالغاء تعيين برتراندرسل بان شباب الجامعة وخاصة من هم دون الثامنة عشرة ، سيتأثرون حتما بآرائه الهدامة ، وبأنهم سينحرفون عن الطريق القويم ، ويرتكبون سائر الجرائم والموبقات الجنسية. ولو كلف القاضي خاطره واطلع على التقارير المكتوبة عن رسل عندما مارس التدريس فى انجلترا والصين والولايات المتحدة لما تورط فى هذا الشطط ، ولأدرك ان كل المعاهد العلمية التى علم فيها تحمل له ارفع آيات الاكبار والاعجاب والتقدير . ولكن القاضى شاء ان يغفل هذه التقارير رغم انها كانت تحت تصرفه فى أى وقت .

وفى الوقت الذى كان يتعرض فيه الفيلسوف العظيم لحملات التنكيل والتشهير ، أبرق لفيف من مديرى الجامعات التى سبق له أن اشتغل فيها يؤيدون تعيينه ويكيلون له الثناء والمديح على ما قام به من خدمات تعليمية جليلة . وتطوعت مارجورى نيكلسون Margorie Nicolson عميدة كلية سميث باصدار بيان ذكرت فيه أنها حضرت سلسلة من المحاضرات التى القاها رسل فى المجلس البريطانى للدراسات الفلسفية يتعرض فيها الفيلسوف مطلقا لآرائه الخاصة فى الزواج والطلاق والايمان والالحاد . فقد كان كلامه قاصرا على تدريس الفلسفة الصرفة . وأضافت مارجورى أنه لم يكن ليتسنى لها أن تعرف شيئا خلال هذه المحاضرات عن آراء رسل الخاصة لو لم تتعرض لها الصحافة بالمبالغة والتهويل .

- ٦ -

عندما أصدر القاضي ماك جيهان حكمه ضد برتراند رسل منى المشايعون له بخيبة أمل شديدة ، ولكن الغبطة الجارفة عمت معارضيه . وكان اخشى ما يخشاه اصدقاء الفيلسوف العظيم ان يحجم مجلس التعليم الاعلى بضغط من الساسة ذوى النفوذ عن استئناف هذه القضية امام محاكم أعلى . واثبتت الاحداث ان هذا التخوف كان ينهض على أساس من الواقع . ولكن أصدقاء حرية الفكر لم يسكتوا عن اضطهاد الفيلسوف السافر المشين وهبوا يذودون عنه فأجتمع فى مدينة شيكاغو المجلس القومى للجمعية الأمريكية لاساتذة الجامعة . وأجمع اعضاء المجلس عن بكرة أبيهم على اصدار قرار يستحثون فيه لاجارديا La Guardia عمدة مدينة نيويورك ، ومجلس التعليم الأعلى لمحاربة الحكم الذى أصدره القاضى ماك جيهان ضد برتراند رسل . وتوالى تأييد رسل من مختلف الهيئات العلمية ، ومن بينها الجمعية الامريكية للباحثين العلماء ، وجمعية التعليم العام ، وتشكلت لجنة خاصة تبنت الدفاع عن قضية حرية البحث العلمى . واطلقت هذه اللجنة على نفسها اسم « لجنة برتراند رسل للدفاع عن الحرية الاكاديمية » تحت رياسة بعض كبار أساتذة الجامعات . واشترك فى حملة الدفاع عن الفيلسوف

المضطهد لفيف من ائمة العلماء والمفكرين فى كل انحاء امريكا . وأرسلت جمعية الحرية الثقافية برقية الى لاجارديا عمدة المدينة ورد فيهـا ان القاضى أظهر رسل بمظهر مشين . وأضافت اللجنة ان هـذا الاتهام الصارخ لا أساس له من الصحة اذ انه من السهل جدا اثبات خطل هذا الزعم عن طريق الرجوع الى شهادة مديرى الجامعات الأمريكيـة التى باشر رسل التدريس فيها .

وعقدت اللجنة الأمريكيـة للدفاع عن الديموقراطيـة والحـرية الفـكرية اجتماعا للاحتجاج على قرارات القاضى ماك جيهان المجحفة . وتوالى فى الاجتماع خطباء لهم وزنهم العلمى وأعربوا عن احتجاجهم على هذا الوضع الشائن . وحتى فى جامعة مدينة نيويورك نفسها التى كان من المقرر تعيين رسل فيها عقد اجتماع حافل كبير خطب فيه عديد من الشخصيات الجامعية البـارزة ، وأعربوا عن سخطهم الشـديد على المعاملة التى عومل بها رجل الفكر العظيم . وذكر احد الخطباء من رجال الفكر فى الجامعة انه ان لم تتمتع أية جامعة تنفق عليها الدولة بحـرية البحث العلمى ، لانتهى الأمر بتوقف التقدم الفكرى فى الحياة الامريكية.

لقد كان القضـاء الامريكى نفســه فى بعض الجهات الاخـرى من الولايات المتحدة أكثر كرما واشد رحابة صـدر مع برتراند رسـل . فعندما كان رسل يدرس بجامعة كاليفورنيا اعترض عليه قسيس سابق وتقدم فى ٣٠ أبريل الى محكمة الاستئناف فى لوس انجلوس يطلب منها التخلص من برتراند رسل وتنحيته من جامعة كاليفورنيا نظرا لمبادئه الهدامة ، ولكن المحكمة رفضت رفضا باتا أن تنظر فى هذا الطلب واهملته كلية كأن شيئا لم يكن .

- ٧ -

لسنا بحاجة الى القـول بأن حكم القاضى ماك جيهـان قد قوبل بالثناء العاطر من المعارضين لبرتراند رسل ، الذين مجدوا فى هذا الحكم بطولته وشرفه . ووصفت جريدة اليسوعيين الأسبوعية « أمريكا » ، القاضى بقولها انه أمريكى حق ، فيه رجولة الامريكى الصميم وقوته . وهو فوق كل هذا قاض شريف ونظيف وثقة من ثقات القانون. وذكرت الصحافة المؤيدة للقاضى أنه متدين عقلا وروحا . وأضافت أن برتراند رسل قد جانبه الصواب عندما وصف القاضى بأنه شخص جاهل للغاية، فهذا يغاير الواقع تماما . ان عقل ماك جيهان وقاد ، لامع فى الدراسات الكلاسيكية فهو يقرأ هوميروس فى نصه الاغريقى ، كما يستمتع بهوراس وشيشرون فى أصلهما اللاتينى . وذهب تحمس رئيس جمعية المدرسين الكاثوليك للحكم الصادر ضد رسل لدرجة انه وصفه بأنه « نصر مجيد

فى تاريخ القضاء ونصر عظيم لقوى الاحتشام والاخلاق كما انه انتصار للحرية الاكاديمية الحقة » .

وبدا من الواضح أن برتراند رسل ليس بالشخص الوحيد الذى يستحق توقيع العقوبة عليه . فغالبية أعضاء مجلس التعليم يستحقون انزال العقوبة بهم لانهم جميعا مشتركون فى مسئولية تعيينه. واحتشدت قوى اليمين فى امريكا وعقدت اجتماعا تعاقب فيه الخطباء . وفى هذا الاجتماع هوجم جون ديوى ومسز فرانكلين د. روزفلت لتبشيرهما بمذهب التسامح السقيم . وفى نفس الاجتماع خطب رئيس اللجنة القومية للانتعاش الدينى ، وندد بأغلبية اعضاء مجلس التعليم الاعلى ووصفهم بأنهم منحلون وطالب بطردهم من مراكزهم واستبدالهم بأناس آخرين ما زالوا يؤمنون بوطنهم ودينهم . ونهض تشارلس كيجان الذى سبق له أن سب رسل والحقه فى هذه المرة بالطابور الخامس الذى ساعد النازيين على احراز انتصاراتهم واتهمه بانه شيوعى ما فى ذلك ريب . وطالب هذا الرجل بطرد أعضاء مجلس التعليم الاعلى وتعيين اناس افضل يخدمون مدينتهم بشرف أكثر . وفى نفس الوقت قام اليمينيون بحملة ضخمة واسعة النطاق لتوعية الامريكان بالمدلول الحقيقى لكلمة (الحرية) ولوضع حد للمحاولات التى يقوم بها اعداء الحرية لطعنها من الخلف .

- ٨ -

كان موقف جريدة النيويورك تيمز Newyork Times من قضية برتراند رسل موقفا لا يتفق بحال من الاحوال والسياسة العامة المتحررة التى تفخر هذه الجريدة باتباعها . ولكن يبدو أن الجريدة تحتفظ باستقلالها فى الموضوعات المحتدمة التى لا تخضع لسلطان رجال الدين وهيمنتهم . ففى المحنة التى اجتازها الفيلسوف تعمدت هذه الجريدة أن تلوذ بالصمت المطبق ، وامتنعت عن الادلاء بأى تصريح ، كما امتنعت عن التعليق على الموقف اثناء المحاكمة . ولكن بعد انقضاء ثلاثة أسابيع من محاكمة رسل ظهرت هذه الجريدة فى عددها الصادر بتاريخ ٢٠ أبريل متضمنة خطابا من مستر تشيس Chase مدير جامعة نيويورك يهاجم فيه موقف القاضى ماك جيهان ، كما يبين فيه الخطورة التى تنطوى عليها هذه السابقة بالنسبة لحرية الفكر الامريكى وتهديدها لاستقلال الجامعات والمعاهد العليا .

ولم تر هذه الجريدة مناصا من الاشتراك فى المعركة المحتدمة حول تعيين برتراند رسل . فكتبت مقالا افتتاحيا تقول فيه انها تنظر الى ماحدث فى هذا الموضوع بعين الأسى والألم . ولكن الجريدة أنحت على رسل باللائمة لقبوله الوظيفة فى مثل هذه الظروف . واضافت ان الحكمة

كانت تقتضى منه الامتناع عن قبول الوظيفة المعروضة عليه اذ كان واضحا انها ستثير عليه ثائرة وحنق قطاعات ضخمة من الامريكان . صحيح أن رسل أستاذ مشهود له بالكفاءة والعلم الغزير . ولكن السخط العام الذى تثيره آراؤه فى الاخلاق يدل بوضوح على قصر نظر مجلس التعليم الاعلى فى تعيين رسل أصلا ، وقصر نظر رسل نفسه لقبوله هذا التعيين فيما بعد فلو كان على قدر كاف من الحكمة لقرر الانسحاب الصامت من مسرح الأحداث .

وكتب برتراند رسل رسالة الى جريدة النيويورك تيمز نشرت فيها بتاريخ ١٦ ابريل قال فيها رسل ان انسحابه فى الواقع كان امرا تقتضيه الحكمة لو أنه كان يبغى راحته الخاصة ، فقد كان هذا الانسحاب سيوفر عليه شقوته وأمله فى هذه التجربة المريرة . وأوضح رسل السبب الذى دفعه لعدم التنحى عن هذه الوظيفة والصمود امام تيار الرأى العام الجارف ، فقال انه صمم على عدم التنحى لشعوره الدائب بان انسحابه سيكون بمثابة خذلان لقطاع من الامريكان المؤمنين بحرية الفكر والمناضلين من أجل حرية الكلمة ، فقد كان هؤلاء الناس يضعون رجاءهم فى استمراره فى المقاومة والوقوف امام تيار المعارضة العاتى . ان التراجع فى نظره كان يعنى الجبن والانانية ، والتسليم بحق المعارضة اذا كانت كبيرة فى استبعاد القلة من الناس التى لا تميل اليها من وظائف الدولة العامة بسبب آرائها أو عنصرها او جنسيتها .

وفى هذا الخطاب أشار برتراند رسل فى فخر وزهو الى الدور العظيم الذى لعبه جده جون رسل فى مطلع القرن التاسع عشر فى تأكيد حقوق الأقليات الدينية وتدعيم مصالحها فقد استطاع اللورد رسل أن يخلص انجلترا من القوانين السائدة التى تقوم على التحيز والتمييز بين الطوائف الدينية المختلفة . كان القانون الانجليزى يحرم على أى انسان الاشتغال بالوظائف العامة الا اذا كان عضوا فى كنيسة انجلترا . وكان هذا القانون بطبيعة الحال ينطوى على اضرار بمصلحة الاقليات من الطوائف الخارجة على كنيسة انجلترا .

وختم برتراند رسل خطابه بقوله ان الروح الديموقراطية الحقة تتلخص فى أن تتعود الاغلبية على أن ترى عواطفها تمتهن دون أن يكون هذا الامتهان سببا فى استيلاء سورة الغضب عليها مما يجعل التسامح مع الأقلية التى تسىء الى شعور الاغلبية شيئا مستحيلا .

- ٩ -

من الأمور التى تدعو الى الأسف أن عمدة مدينة نيويورك «لاجارديا» والقاضى ماك جيهان بذلا قصارى جهدهما للحيلولة دون استئناف هذه القضية امام محاكم اعلى . وتفتق ذهنا العمدة والقاضى عن حيلة ماكرة

لتفويت كل فرص العمل على برتراند رسل ، وابعاده عن منصب التدريس بكافة الطرق . وكان مسلك العمدة يتصف فى مظهره بالبراءة والسذاجة ولكنه كان يحمل السم الزعاف فى طياته . فقد عمد العمدة الى شطب ميزانية كرسى الفلسفة الشاغر الذى كان رسل يزمع شغله . وعندما نشرت الميزانية العامة لجامعة مدينة نيويورك لاحظ بعض المراقبين اختفاء ميزانية الوظيفة التى احتدم الخلاف حولها . فما الذى حدا بالعمدة أن يفعل هذا ؟ كان العمدة يريد ان يتأكد من ان برتراند رسل لن يعود الى وظيفته بجامعة مدينة نيويورك حتى لو حكم الاستئناف فى صالحه . وبلغ اضطهاد برتراند رسل مدى ابعد واعنف فقد اشترط المسئولون فى جهات جامعية أخرى استبعاد ترشيحه عند تقرير ميزانيات الجامعات والمعاهد العلمية العليا .

وبطبيعة الحال استاء مجلس التعليم الاعلى من تدخل العمدة فى شئون المجلس الخاصة على هذا النحو السافر ، كما استاء من الحيلة التى لجأ اليها لضمان استبعاد رسل من التدريس بالجامعة . وأراد المجلس أن يستأنف القضية مهما كانت الظروف . ورفض الممثل القضائى للمجلس أن يتحرك لاستئناف القضية رغم اقتناعه بعدم قانونية حكم القاضى ماك جيهان وعدم شرعية الاجراءات التى اتخذها العمدة ، ونصح المسئولين فى المجلس بأن يقفوا بالقضية عند ذلك الحد نظرا لطبيعة القضية الحساسة التى تهيج خواطر الناس وتثير حفيظتهم . وأمام خذلان الممثل القضائى الرسمى لمجلس التعليم الاعلى اضطر المجلس الى البحث عن محامين من الخارج يتولون المرافعة فى محكمة الاستئناف وتطوعت شركة أمريكية من المحامين للدفاع عن رسل مجانا . ولكن القاضى فى محكمة الاستئناف رفض أن يعترف بهذه الهيئة الدفاعية الجديدة بدلا من المندوب القضائى الرسمى الذى ينوب عن مجلس التعليم الأعلى . وبهذه الخطوة بات واضحا أن المؤامرة المحكمة ضد الفيلسوف قد اجتمعت خيوطها فى نسيج من الالتواء القانونى ، كما بات واضحا أن مجلس التعليم الاعلى قد أصبح عاجزا عن أن يفعل شيئا فى سبيل الغاء حكم القاضى ماك جيهان الجائر .

وأراد برتراند رسل أن يستخدم محاميا خاصا للدفاع عن سمعته التى لوثت ، وشرفه الذى لطخ فى الرغام ولكن محكمة الاستئناف رفضت باعتبار أنه ليس لرسل مصلحة قانونية فى هذه القضية . وامام هذا الاجحاف وجد رسل نفسه على طريق مسدود . ومن العجب العجاب أن تعتبر المحكمة أن لجين كاى مصلحة قانونية فتسمح لها برفع قضيتها ضد رسل ثم تنكر محكمة الاستئناف حق الفيلسوف فى الدفاع عن نفسه وحماية سمعته من التلويث الذى اصابها بزعم أنه ليس له مصلحة قانونية فى القضية .

لقد كان اضطهاد رسل سافرا وقحا لدرجة أن فيلسوف التربية المعروف جون ديوى قال معقبا على هذه الاجراءات التعسفية : « نحن الأمريكيين لا نملك الا أن يتشرح وجهنا خزيا وعارا لهذه الوصمة التى لطخت سمعة عدالتنا » .

- ١٠ -

بعد أن انتهى رسل من مدة التدريس المحددة له فى جامعة كاليفورنيا شد رحاله الى جامعة هارفارد المعروفة . ولم يقم المسئولون فى جامعة هارفارد وزنا لاعتراضات القادحين وذمهم ، وبتهجم الرجعية الصارخ عليه فقد أصدرت الجامعة بيانا تقول فيه انها بعد أن احاطت علما بالنقد الموجه الى تعيين برتراند رسل قد ايقنت بعد استعراض الموقف وسائر الظروف انه من مصلحة الجامعة العليا أن تؤكد قرار تعيين الفيلسوف الكبير . وفى هارفارد حاضر رسل دون أن يحدث ما يعكر الصفو . وبعد هارفارد انتقل رسل الى بنسيلفانيا ليحاضر فيها سنتين متصلتين . وفى عام ١٩٤٤ عاد امام الفلاسفة المحدثين الى انجلترا حيث انعم عليه الملك جورج بوسام الاستحقاق .

وفى عام ١٩٥٠ عاد رسل الى امريكا للتدريس فى جامعة كولومبيا واستقبله الجميع بعاصفة من الهتاف والتصفيق لن ينساها الحاضرون مدى الحياة ، وقورن استقبال كولومبيا للفيلسوف باستقبال باريس لفولتير عند عودته اليها فى عام ١٧٨٤ بعد غربته التى كابدها فى منفاه .

وفى عام ١٩٥٠ أيضا منح اللورد رسل جائزة نوبل للاداب . ويبدو أن اللجنة السويدية التى منحته هذه الجائزة العالمية لا تحفل بالقيم الروحية والأخلاقية كما يحفل بها الذين حاكموا رسل فى أمريكا.

الفصل الثالث

قصة برتراند رسل مع الحرب والسلام
الملحد الذى يسمع صــوت الله

يقول برتراند رسل فى معرض الحديث عن موقفه من الحــــرب والسلام ان حياته تنقسم بشكل واضح الى فترتين متباينتين : فترة ماقبل الحرب العالمية الاولى ، وفترة مابعد هذه الحرب، كما يقول ان حرب ١٩١٤ قد جعلته ينفض عن نفسه غبار الكثير من التحيزات والمعتقدات التى كان يدين بها ، وأن يبدأ التفكير من جديد فى عديد من المسائل الاساسية ·

ومنذ عام ١٩٠٢ورسل يلاحظ كل الشواهد الدالة على تجمـــــع سحب الحرب وزيادة اخطارها · وكان هذا الاتجاه نحو الحرب يؤلمـــــه ويبعث فيه اليأس والقنوط · فلا غرو اذا رأيناه يعارض تيار الحــــرب بكل جوارحه · وقف رسل فى وجه الحرب العالمية الاولى لأنه كان يعتبرها بمثابة نهاية عهد ، وبداية عهد يؤذن حتما بانخفاض المستوى الحضارى العام · ولم يكن رسل يعتبر أن ايجاد وسيلة لتعايش انجلترا مع ألمانيــا القيصرية أمر مستحيل · ولهذا دافع رسل عن فكرة حيـــاد انجلترا · ونحن نرى أن برتراند رســـل حتى يومنا هذا لايتزحزح قيد أنملة عن الاعتقاد بسلامة نظرته فى الحرب الأولى ،فهو يذكر فى هذا الصدد أن أحداث التاريخ التى تلت الحرب الأولى قد جعلته يتأكد من صحة رأيــه وسلامة موقفه ·

كان رسل قبيل اندلاع لهب الحرب العـــالمية الاولى فى كامبريدج يناقش الموقف مع كل انسان يجده فى طريقه · كان ذلك فى أثناء الايام الاخيرة اللافحة الحر من شهر يوليو على وجه التحديد · واستطاع رسل أن يجمع توقيعات عدد كبير من أساتذة الجامعة والزملاء فيها على بيان يدافع عن حياد انجلترا ، ونشر هذا البيـــان فى جـــريدة المانشستر جارديان · ولكن بمجرد انااعلنت الحرب بالفعل واشتركت انجـلترا فيها ، تخلى معظم الموقعين على البيان عن موقفهم المدافــــع عن السلام ، وشرعوا يؤيدون الحكومة الانجليزية فى كل تصرفاتها ·

وفى أمسية ٤ أغسطس من عام ١٩١٤ أخذ برتراند رسل يتجول فى لندن وخاصة على مقربة من ميدان الطرف الاغر ليراقب الجمــــاهير الهاتفة بالحرب المتحمسة لها · وكان هدفه من هذا التجوال هو الوقوف على حقيقة مشاعر الناس العاديين نحو الحرب وتبيان موقف السابلة منها · ويعترف رسل بأن خبراته فى هذا الصدد قـــد غيرت الكثير من معتقداته الخاطئة فيما يتعلق بالطبيعة البشرية · ففى خلال هذه الايام

ومن ثنايا تجواله فى الطرقات اكتشف رسل لدهشته ابتهاج النـــاس العاديين بتوقع الحرب ، ومتعتهم فى نشـــوبها فهى تبدد الملل المخيم على حياتهم • كان رســـل فيما مضى يؤمن فى سذاجه كما يؤمن سـائر المدافعين عن السلام ـ بأن الحرب شىء كريه تفرضه الحكومات الباغيـــة المستبدة الميكيافيلية على شعوبها غير الراضية عنوة وقسرا • ولكنه رأى بنفسه مقدار ابتهاج الرجال والنساء العاديين بمقدمها • (لاحـــظ أن برتراند رسل يدأب على ترديد هذه الفكرة في كتاباته فهو يرى أن فى طبيعة الانسان نزعة الى العدوان تجد متنفسا لها فى الحروب ، كما أنه يرى فى هـــذه النزعة عقبة تعترض طريق انشاء عالم موحد يســوده السلام • ولكن رسل لا يبدى يأسه من التغلب على هذه النزعة المدمـرة ويؤمن بامكان التســـامى بهذه الطبيعة العدوانية وذلك بتوفير فرص المغامرة البناءة والمخاطرة السلمية (كالاستكشاف وارتياد الفضاء مثلا) لمن يتوق اليها من الشباب) •

لم يكن من السهل على برتراند رسل أن يتخـــذ موقفه الداعى الى السلام والى انهاء الحرب العالميه الاولى بأى ثمن • فقد اعتبر الانجليز أن موقفه خسيس وينطوى على خذلان لهم كما يتضمن نصرة لالمانيا القيصرية عدوتهم •• ورماه بنو جلدته بالخيانة واتهموه بأنه عميل ألمانى • ويقول رسل أن موقفه الداعى الى السلام وضعه فى مركز حرج لا من ناحيـة العداء العام الذى واجهه ، أو انفضاض معظم الأصدقاء عنه فحسب ، بل من ناحية شعوره الوطنى الخاص • فحب انجلترا على حد قوله يكاد يكون أقوى عاطفة فيه ، ولم يكن من اليسير عليه أن يتخلى عن هذه العاطفة • لقد كان من عادة برتراند رسل أن يساوره الشك فيما يصل اليه من آراء ولا يقطع بتصديق أى منها فيشله هذا الشك عن التصرف حينا • وهو حينا آخر ينظر الى المواقف الحرجة المستعصية نظرة استخفاف وعدم مبالاة ••• ولكن عندما نشبت الحرب العالمية الاولى ، لم يداخله شك قط فى الموقف الذى يتعين عليه اتخاذه • فقد شعر أن عليه أن يقف فى وجه هذه الحرب مهما كلفه هذا من ثمن • لقد أصابته دعايات سائر الـدول المشتركة فى الحرب بالغثيان لما تضمنته من أكاذيب قومية سافرة كانت تسىء اساءة بالغة الى حبه للحقيقة ، كما ساءه كانسان يحب الحضارة أن يرى صرحها ينهار أمام جحافل البربرية والظلام أضـــف الى ذلك أن المجازر البشرية البشعة هالته وجعلت قلبه ـ وهو أب يحنو على أبنائه ـ ينفطر على ضياع الشباب وهلاك الابرياء فى أتون الحرب المتقد • ويقول رسل فى هذا المجال ان شيئا واحدا دفعه الى المقـــاومة والاستمرار فى الجهر برأيه رغم كل مظاهر العداء ، والى الاحتجاج على الحرب رغم ادراكه التام بعدم جدوى مثل هذا الاحتجاج : هذا الشىء كان سيطلق عليـــه « صوت الله » لو كان متدينا • وألح عليه هذا الصوت المنبعث من دخيلة ضميره الحاحا شديدا جعله يضحى بحبه لوطنه وأصدقائه كما جعله يتقبل اضطهاد الناس له فى جلد وصبر وتماسك منقطع النظير •• وهـــذا الشعور الجارف الهـاتف من الأعماق ليس بالغريب على رواد الانسانية فقد خبره سقراط كما خبرته جان دارك من قبل • ونحن نعرف جميعا أن سقراط وجان دارك كانا شديدى التدين • ولكن الغريب فى الأمر أن

يكابد مثل هذه التجربة القريبة من الصوفية ان لم تكن الصوفية بعينها انسان ملحد كبرتراند رسل .

ـ الفيلسوف الكبير يتعرض لضرب يكاد يفضي الى الموت

كانت تجربة الحرب العالمية الأولى مريرة ، مروعة بالنسبة لبرتراند رسل لدرجة أنه أصبح لفترة من حياته يكابد رؤية مزعجة يرى فيها لندن كمدينة من الوهم لا تتصل بعالم الحقيقة فى شىء . كان رسل يرى فى خياله المحموم جسور لندن وهى تتقوض وتنهار وتغوص فى اليم ، ثم يرى المدينة العظيمة وهى تتلاشى بأكملها من الوجود وتتبدد كأنها ضباب الصباح . وأحس الفيلسوف أنه يرزح تحت كابوس مزعج ويعيش فى عالم مادته من الأوهام . ولكنه آلى على نفسه أن يضع حدا لهذه الرؤية البشعة التى تشله عن العمل واجتاحه شعور عارم بضرورة الاقدام على شىء ايجابى .

ولم تدم سلبية برتراند رسل واستغراقه فى كابوس الحرب المزعج طويلا . فقد بدأ يخطب فى اجتماعات يعقدها المؤمنون بقضية السلام وكانت هذه الاجتماعات تمر غالبا دون أن يحدث ما يعكر صفوها ، ودون أن يتعرض المجتمعون للاعتداء أو الأذى . وفى اجتماع عقده أنصار السلام فى كنيسة الأخوة فى سوث جيت رود فى حى من أفقر أحياء لندن على الاطلاق اندلعت أول شرارة لاضطهاد دعاة السلام فقد وزعت الصحف الوطنية منشورات فى كل الحانات القريبة من مكان الاجتماع تقول ان رسل وأعوانه على اتصال بالألمان الأعداء، وانهم يرسلون اشارات الى طائرات الاعداء حتى تتمكن من اسقاط قنابلها واصابة الهدف بدقة.

أثارت هذه الشائعات عواطف الناس على أنصار السلام فحاصر بعض الغوغاء مكان الاجتماع فى الكنيسة يقودهم حفنة من رجال الشرطة. وكان كل المتظاهرين من السكارى أو انصاف السكارى . ولم يبد غالبية أنصار السلام رغبة فى المقاومة فقد كان بعضهم يؤمن ايمانا راسخا بعدم المقاومة أو استخدام العنف مهما كانت الظروف . أما البعض الآخر فقد أدرك العبث الذى تنطوى عليه أية محاولة للمقاومة نظرا لقلة عدده. ولم يحرك ضباط البوليس الواقفون ساكنا فقد شاءوا أن يتركوا المجتمعين فى الكنيسة لمصائرهم المحتومة .وعبثا حاول ضباط البوليس اغراء السيدات بالابتعاد عن مكان الاحداث حتى لا يصيبهن سوء ، وحتى يخلو الجو أمام المتظاهرين ليفعلوا ما شاءوا بالرجال الجبناء الذين تسول لهم أنفسهم خذلان بلادهم فى وقت الشدة ، فقد رفضت احدى السيدات مغادرة المكان قبل أن يغادره زملاؤها من الرجال . فضربت بذلك مثلا رائعا للشجاعة اقتدت به بقية السيدات .

وعندما غلت مراجل الغضب فى عروق المتظاهرين من السكارى تقدم بعضهم من دعاة السلام يحملون عوارض خشبية مليئة بالمسامير . كل هذا ورجال الامن لا يحفلون بشىء مما يقع أمام سمعهم وبصرهم . وكان من نصيب برتراند رسل أنه تعرض لهجوم اثنين من السكارى عليه . واندفع المعتديان صوبه حاملين هذه العوارض الخشبية يريدان

الفتك به • ولم يعرف الفيلسوف كيف يدافع عن نفسه أمام هذا النوع من الهجوم ، ولما رأت احدى السيدات الخطر الداهم الذى يتهدد حياته ، طلبت من ضباط البوليس أن يتدخلوا لحماية برتراند رسل من السكارى فهز رجال البوليس أكتافهم كأن الأمر لا يعنيهم فى قليل أو كثير ، وساء السيدة هذا الاستخفاف من جانب البوليس فصرخت فى انفعال : «ولكنه فيلسوف بارز » • ولما لم يبد رجال الامن أدنى التفات الى الفيلسوف البارز عادت السيدة من جديد الى الصراخ فى وجه رجال البوليس «ولكنه مشهور فى أنحاء العالم بأنه رجل علم » • ولم يحرك البوليس ساكنا فتفتق ذهنها عن حيلة ، وقالت للبوليس مستصرخة : «لكنه أخو ايرل»• وفى الحال اندفع رجال البوليس لانقاذ برتراندرسل من براثن المعتدين • ولكن هذه المعونة من جانب الشرطة كانت متأخرة •• وفى هذه الاثناء كانت احدى السيدات الداعيات للسلام قد اعترضت طريق الاثنين من السكارى اللذين هاجما رسل واستطاعت هذه السيدة أن تحول بينهما وبين الفيلسوف حتى توفر له فرصة للفرار • وتمكن رسل أخيرا من الهرب بجلده سالما • والذى لا شك فيه أنه مدين بحياته لهذه السيدة التى اعترضت سبيل السكارى • ولولا تدخل البوليس لحمايتها لفتك السكارى بها •

كان رسل يلقى خطبة فى كنيسة الاخوة التابعة لقسيس من دعاة السلام على جانب عظيم من الشجاعة . وعلى الرغم مما تعرض له الفيلسوف ورفاقه من عنف واعتداء وتهجم فقد طلب منه هذا القس الشجاع أن يلقى خطابا عن السلام من منبر كنيسته • ولكن جمعا من الغوغاء اجتمعوا واضرموا النار فى منبر الكنيسة • وبطبيعة الحال لم يتمكن رسل من القاء خطابه • وهاتان الحادثتان هما الوحيدتان اللتان تعرض رسل فيهما لاعمال العنف فى سبيل دعوته •

وبسبب دعوة رسل للسلام طردته جامعة كامبريدج من استاذيته للرياضة بكلية ترينيتى • ثم أودعته سلطات الامن الانجليزية السجن لمدة أربعة شهور ونصف من عام ١٩١٨ • وفى السجن طاب له المقام وخاصة لان اللورد آرثر بالفور تدخل لدى سلطات الامن حتى تعامله أحسن معاملة يمكن لمسجون أن يحظى بها ولا تحرمه من القراءة والكتابة طالما أنه لا يكتب داعيا للسلام ووقف الحرب •• ويقول برتراند رسل أن عزلته التامة فى السجن أتاحت له فرصة للقراءة الدائبة والعمل المستمر فاستطاع أن يفرغ فى سجنه من كتابة « مقدمة للفلسفة الرياضية » كما بدأ فى تأليف كتاب آخر له يحمل عنوان « تحليل العقل » • وفى السجن أبدى رسل شيئا من الاهتمام بزملائه المساجين• وظهر له من معاشرة المساجين انهم لا يقلون من الناحية الاخلاقية عن بقية الناس خارج جدران السجون ولكنه لاحظ أن قواهم العقلية بوجه عام أقل بقليل من مستوى الذكاء البشرى المعتاد • والدليل على ذلك على حد تعبير رسل المتهكم الساخر ان أمرهم افتضح وانتهى بالقبض عليهم •

وعند دخوله السجن يروى رسل نادرة حدثت له واشاعت فى نفسه المرح لمدة أسبوع كامل • فقد استوقفه حارس السجن عند البوابة

الخارجيه وطلب منه إســـتيفاء بعض البيانات .. وسأله الحارس عن ديانته فاجاب رسل بأنه متشكك . فطلب الحـــارس الجاهل منه أن يساعده في هجاء هذه الكلمة الغريبة عليه وهو يقول متنهدا . « حسنا هناك أديان كثيرة ولكنى أعتقد انها جميعا تعبد نفس الاله » .

وفى سبتمبر عام ١٩١٨ خرج برتراندرسل من السجن وكان من الواضح ان الحرب على وشك أن تضـع أوزارها . وفى يوم ١١ نوفمبر عقدت الهدنة بين الدول المتحاربة وعاد السلام الى العـــالم الممزق . وعندما علم الناس خبر انتهاء الحرب عمت بينهم فرحة كبرى ودخـل السرور الى قلب الفيلسوف الكبير وشارك الانسانية ابتهاجها غـير أن شعوره القديم بالوحدة والعزلة سرعان ما عاد اليه .

من المنطق الرياضى الى السياسة

يؤكد برتراندرسل فى كتاباته أن الحرب العالمية الاولى قد أثرت فى مقدرات حياته فجعلته يوجه اهتمامه الى السياسة بعد أن كان اهتمامه قاصرا على دراسة المنطق الرياضى . صحيـح أن الحرب الاولى لم تجعله يهجر المنطق والفلسفة المجردة هجرانا تاما ، الا انهـا جعلته يركز فكره على المشاكل الانسانية والاجتماعية ويسعى الى الوقوف على أســباب الحروب والى محاولة التوصل الى طرق لمنعها ويعترف رسل بالصعوبات الكأداء التى تكتنف مثل هذه الموضوعات الشائكة كما يعترف بأن النجاح الذى أصابه فى هذا المجال أقل بكثير من النجاح الذى سبق له أن أصابه عندما توفر على دراسة المنطق الرياضى . ويعزو الفيلســوف فشله فى هذا الشأن الى أن نجاح الدعوة الى السلام وماشاكلها من هــذه الامور يعتمد على حث الناس والتأثـير فيهم بينــما ان طبيعة تأهيله ومرانه السابقة لا تساعده فى هذا المضمار .

وفى الايام الاولى من حرب ١٩١٤ استرعت انتـباه رسل الصلة الوثيقة الهامة التى تربط بين السياسة ونفسية الافراد . فعنـدما تتفق مجموعات الناس على مسلك معين ، يكون هـذا المسلك نتيجة العواطف المشتركة التى تربط بين نفوسهم جميعا . وهـــذا بالذات ما دعاه الى الالتفات الى التحليل النفسى فيما بعد . كان رسل قبـل الحرب العالمية الاولى يجهل التحليل النفسى جهلا تاما . ولكن ملاحظاته لمسلك الجماهير المشحون بالنزعة نحو الحرب فى الايام الاولى من أغسطس سنة ١٩١٤ دلته بما لا يدع مجالا للشك على أهمية التحليل النفسى فى فهم السلوك الانسانى . ومن خـــلال خبراته الخاصة بالحرب تبين له الا سبيل الى اقامة عالم يسوده السلام ويشيع فيه الامن والطمأنينة اذا لم يتم تغيـير فى شعور الافراد . فشعور الكبار ان هــو الا نتيجة عوامل مختلفة :

تجاربهم فى أيام الطفولة ، ونظام التعليم والصراع الاقتصادى والنجاح والفشل الذى يصيبه الانسان فىحياته وعلاقاته الخاصة والانسان الذى يشعر بأن حياته لمتضع عبثا أو تبوء بالفشلهو الذى يستطيع أن يحمل نحو بقية أفراد العائلة الانسانية شعور الشفقة والحنو والطمأنينة والرغبة في التعاون والمساعدة • ويقول رسل فى هذا الصدد : « منذ تلك الأيام الأولى من شهر أغسطس ١٩١٤ حتى يومنا هذا اقتنعت اقتناعا راسخا بأن الاصلاحات الأساسية فيما يتعلق بالشئون الانسانية هى تلك التى تزيد من الشعور الطيب ، وتقلل من الضراوة نحو الآخرين» .

برتراندرسل يتحدث عن السلام

خطبة ألنيت فى مجلس السلام العالمى فى هيلسنكى

يواجه الانسانية خطرا لم يسبق لها ان واجهته على مدى التاريخ الانسانى ، فأما أن ننبذ الحرب أو يجب علينا أن نتوقع الفناء للجنس البشرى ، وقد تعالت صيحات كثيرة من رجال العلم البارزين والسلطات العليمة بالاستراتيجية العسكرية منذرة بالخطر الداهم . ولا يستطيع أحد منهم أن يحدد أسوأ النتائج على وجه التأكيد .

والذى أظن أنه يجوز اعتباره أمرا أكيدا ، هو انتفاء امكانية النصر لأى من الجانبين كما هو مفهوم من معنى النصر حتى يومنا هذا . واذا استمر الاشتغال بالحرب العلمية دون ضـــابط فمن المؤكد أن الحرب القادمة لن تبقى أحدا على قيد الحياة ويستتبع هذا ان الامكانيات الوحيدة أمام الانسانية تنحصر اما فى السلام عن طريق الاتفاق أو السلام الذى يحلق فوق الموت الشامل .

وستساعدنا سلسلة الخطوات التى أقترحها ، كمـــا أعتقد ، فى الوصول الى الحل الاسعد ولا شك ان هناك وسائل أخرى للوصول الى الهدف نفسه، ولكن من المهم ألا ينجح اليأس فى شل نشاطنا ، ويمنعنا من أن تمثـــل فى أذهاننا ولو طريقة واحدة على الأقل محدودة المعالم للوصول الى سلام أكيـــد .

وقبل أن أعرض لهذه الخطوات ، أحب أن أعلق على وجهـــة نظر أعتقد أن الصواب يجانبها ، ويدعو اليها أصدقاء « للسلام مخلصون ممن يذهبون الى القول بأن مانحتاج اليه هو اتفاقية بين الدول الكبرى تتعهد فيها بعدم استخدام الاسلحة النووية على الاطـلاق » . ولكنى أعتقد أن محاولة الوصول الى مثل هذه الاتفاقية ستفضى الى طريق مسدود لسببين

وأول هذين السببين أنه يمكن انتاج مثل هذه الاسلحة الآن بدرجة من السرية التى تتحدى التفتيش . وسيستتبع ذلك انه حتى لو ابرمت اتفاقية لحظر استعمال مثل هذه الاسلحة فسيظن كل جانب ان الجانب الآخر يقوم بانتاجها سرا . وسيجعل الشك المتبادل العلاقات أكثر توترا عما هى عليه .

ونقطة الجدل الاخرى هى انه حتى لو امتنـع كل من الجانبين عن انتاج مثل هذه الاسلحة فى فترة السلام الاسمية فلن يشـــعر أى من الجانبين انه ملتزم بالاتفاقية فى حالة نشوب الحرب فعلا وسوف يمكن لكلا الجانبين انتاج قنابل هدروجينية عديدة بعد البدء فى القتال .

هناك كثير من الناس الذين يخدعون أنفسهم معتقدين أن القنابل

الهيدروجينية لن تستخدم بالفعل اذا سببت حرب • ويشير هؤلاء الناس الى أن الغازات السامه لم ستعمل فى الحرب العالميه الثانية • وأخشى ان هذا لا يعدو أن يكون وهما كاملا • فالغازات السامة لم تستخدم ، لانه وجد انها غير حاسمه ، وان اقنعة الغازات تقى من الخطر • والقنبلة الهيدروجينية على العكس من ذلك سلاح حاسم لم تكتشف حتى الآن وسيلة للحماية من خطره • ولو استخدم احد الجانبين هذه القنبلة دون أن يستخدمها الجانب الآخر فمن المحتمل أن الجانب الذى سيبدأ باستخدامها ، سيجعل الجانب الآخر فى مركز العاجز عن طريق استعمال قدر ضئيل من القنابل التى لن تسبب أى دمار يذكر للجانب الذى استعملها اذا كان الحظ حليفه • فالدمار الأكثر فظاعة الذى يختشى منه يعتمد على انفجار عدد كبير من القنابل •

ولذلك فأنا أظن أن الحرب التى يستخدم فيها جانب واحد فقط القنابل الهيدروجينية قد تنتهى الى شىء يستحق أن يسمى انتصارا لهذا الجانب • ولا أظن – وفى هذا تجدنى متفقا مع سائر السلطات العليمة بالشئون العسكرية – انه ليس هناك أدنى فرصة فى عدم استعمال القنابل الهيدروجينية فى حالة نشوب حرب عالمية • ويستتبع ذلك اننا يجب أن نقوم بمنع الحروب الشاملة والا كتب علينا الهلاك • وانها لخطوة ضرورية فى طريق السلام أن تحمل حكومات العالم على الاعتراف بهذا • وباختصار ، ان القضاء على القنابل الهيدروجينية وهو أمر يجب علينا جميعا أن نرغب فيه لا يمكن أن يصبح ذا فائدة الا بعد أن يجتمع الجانبان فى محاولة صادقة لوضع حد للعلاقات العدائية بين المعسكرين • كيف يمكن تحقيق هذا ؟

لا بد من تحقيق هدفين قبل أن تصبح المواثيق والتدابير الدولية ممكنة •

أولا – على الدول الكبرى أن تدرك انها لا يمكن تحقيق أهدافها ، مهما كان نوعها عن طريق الحرب •

ثانيا – أن يقل الشك المتبادل من الجانبين فى ان كلا منهما يستعد للحرب كنتيجة لهذا الادراك العالمى الشامل •

وفيما يلى بعض المقترحات الخاصة بالخطوات التى يمكن أتخاذها لتحقيق هذين الهدفين :

يجب أن تكون الخطوة الاولى فى شكل بيان يصدره نفر قليل من ابرز العلماء بشأن الاثر الذى يجب علينا توقعه من جراء حرب نووية •

من الجانبين ومن المهم أن تذكر لنا السلطات العليمة فى لغة واضحة كما يجب ألا يتضمن البيان تحيزا ، مهما يكن طفيفا ، لصالح أى الدور الذى ينبغى على الدولتين الحيادتين الممثلتين أن تعلباه فيقول ان ماينبغى علينا توقعه بشتى الطرق ، ويمدنا بمعلومات أكيدة مؤيدة كلما أمكن ذلك كما تذكر لنا الفرض الأكثر احتمالا اذا كان الدليل القاطع لا يتوفر لديها • ويمكن لمن هم على استعداد لتحمل المشاق الكبار فى

استيفاء المعلومات وجمعها أن يتأكدوا فى الوقت الحاضر من صحة معظم الحقائق فى الحدود التى تسمح بها المعرفة القائمة . ولكن الذى نحتاج اليه هو عرض المعلومات بأبسط أسلوب ممكن وأن تكون هذه المعلومات فى متناول يد الناس والعمل على ذيوعها على أوسع نطاق ، كما يجب أن يتوفر لدى المشتغلين بنشر هـذه المعلومات بيان مدعم بالحجج ، موثوق به للاستناد والرجوع اليه . وأن يبين البيان فى جلاء لايرقى اليه الشك ان الحرب النووية لن تعود بالنصر على أى من الجانبين ، وأنها لن تخلق العالم الذى يريده الشيوعيون ، أو العالم الذى يريده المناهضون لهم ، أو العالم الذى ترغب فيه دول الحياد . .

ويجب دعوة العلماء فى أنحاء العالم الى المساهمة فى هـذا البيان الفنى ويحدونى الامل فى أن يشكل هذا التقرير كخطوة تالية ، أساسا لعمل بمقتضاه احدى الحكومات الحيادية أو أكثر ، ويمكن لهذه الحكومات أن تقوم بتقديم هذا التقرير ، أو تقرير يضعه علماؤها المتخصصون اذا كانت تفضل ذلك الى كل حكومات العالم الكبرى وتدعوها للادلاء برأيها فيه ، ويجب أن يكون التقرير ذا وزن علمى يؤازره بالدرجة التى يكاد يتعذر معها على أية حكومة أن تدحض ما فيه من بيانات علمية . ويمكن للحكومات الواقعة على جانبى الستار الحديدى أن تعترف دون أن تفقد ماء وجهها للحكومات الحيادية بأن الحرب لم تعد تصـلح كاستمرار لأساليب السياسة . والهند بالذات من بين دول الحياد فى وضع مفضل نظرا لانها على علاقات صديقة مع كل من الكتلتين ولما لها من خبرة ودراية فى التوسط الناجح بـين كوريا والهنـد الصينية . وأنا أود أن أرى الحكومة الهندية تقوم بتقديم هذا التقرير العلمى الى الـدول الكبرى وتدعوها الى التعبير عن رأيها فيه . وأملى أن نحمل الجميع بهذه الطريقة على الاعتراف بانهم لن يفيدوا شيئا من حرب نووية .

ومن الضرورى فى الوقت نفسه اجراء تعـديلات معينة فى أفكار هـؤلاء الذين ما زالوا حتى الآن مندفعـين فى مشايعة الشيوعية أو مناهضتها . ويجب عليهم أن يدركوا أن السباب المر الموجه الى الجانب الآخر أو تأكيد خطاياه السابقة أو الشكوك فى بواعثه ونياته لن تخدم غرضا مفيدا . وليسوا بحاجة لان يتخلوا عن آرائهم فى تفضيل نظام على آخر . كما انهم ليسـوا بحاجة الى التخلى عن المفـاضلة فيما يختص بسياسة بلادهم الحزبية . والامر الذى يجب عليهم جميعا الاقرار به هو أن نشر الرأى الذى يفضلونه لا بد أن يتم عن طريق الحث والاقنـاع . لا القوة والعنف .

***

دعنا نفترض الآن ان الدول الكبرى قـد أمكن اغراؤها عن طريق هذه الوسائل المقترحة على الاعتراف بأنه لا يمكن لأية دولة منها أن تحقق أهدافها بالحرب وأن هذه لأصعب خطوة ، اذن فما الخطوات التى يمكن اتخاذها بعد ذلك ؟

الخطوة الأولى التى ينبغى اتخاذها على الفـور تنحصر فى التهادن المؤقت للصراع سواء كان ساخنا أو باردا بينما تستنبط فى الوقت ذاته

تدبيرات أكثر دواما • وحتى ذلك الحين لا بد أن تكون الهـــدنة المؤقتة مبنية على أساس الاحتفاظ بالاوضاع القائمة لعـــدم توفر أساس آخر لا يحوى في طياته مفاوضات عسيرة ، وينبغى لمثل هـذه المفاوضات أن تجىء في حينها • ولتكون هذه المفاوضات مثمرة فلا بد من عدم اجرائها في جو العداوة والشحناء والشك القائم في الوقت الحاضر ، وعنـــدما تخف حدة الكراهية والخوف في خلال هذه الفترة ، ينبغى تخفيف وطأة الشتائم الصحفية ، وحتى الانتقادات التى يكيلها كل من الطرفين للآخر بوجه حق لا بد من اسكاتها • وينبغى تشجيــع التجارة المتبادلة وتزاور الوفود المتبادل وخاصة النوع الثقافى والتعليمى منها • لا بد أن يحدث هذا كله على سبيل تمهيد الجو المناسب لعقـــد مؤتمر ، وتمكين هــذا المؤتمر من أن يقضى على الصراع من أجل القوة •

وعندما يتم خلق جو ودى بعض الشيء باتباع هـــذه الاساليب ، ينبغى أن ينعقد مؤتمر دولى ، الغرض منه هو خلق سبل دون ســـبيل الحرب لتصفية الخلافات بين الدول • وهذا عمل شـــاق لا لضخامته وتعقيده فحسب بل بسبب التعارض الحقيقى الكبير الذى قد ينشأ فى المصالح • ولا أمل فى نجاح هذا العمل الا اذا كانت الآراء قد أعـــدت اعدادا كافيا • وعلى مندوبى هذا المؤتمر أن يجتمعوا بحيث يكون رائدهم الاقتناع الراسخ بأمرين لا بد أن يكونا ماثلين فى ذهن كل مندوب منهم

أولهما : الاقتناع بان الحرب تعنى الدمار الشامل

وثانيهما : الاقتناع بأن تصفية النزاع عن طريق الاتفاق أفيـــد للمتنازعين من استمرار النزاع حتى ان لم يكن هـــذا الحل مرضيا تماما لاى من الطرفين •

ولو تشرب المؤتمر هذه الروح لاستطاع أن يمضى قدما يحدوه شيء من الرجاء الناجح فى معالجة المشاكل الضخمة التى ستعرض له •

وأولى هذه المشاكل التىيجب معالجتها هى خفض التسلح القومى• وطالما ان هذا التسلح سيظل على ما هـــو عليه فى الوقت الحاضر فمن الواضح ان نبذ الحرب لا يتسم بالاخلاص •

وينبغى اعادة الحريات التى سبق وجودها قبل عام ١٩١٤ وخاصة حرية السفر وحرية تداول الكتب والمجلات والتخلص من العقبات التى تعترض نشر الافكار عبر الحـــدود القومية • واعادة هـــذه الحريات السابقة خطوة من الخطوات الضرورية نحو الادراك بأن الانسانية تكون عائلة واحدة ، وان المنازعات بين الحكومات عندما تشتد حدتها كمـــا تشتد الآن ليست سوى عقبات فى سبيل السلام •

ولو تحققت هذه الاعمال الشاقة فسيمضى المؤتمر قـــدما الى خلق سلطة عالمية سبق للعـــالم ان حاول تحقيقها مرتين ، أولا : عن طريق

عصبة الامم ، وثانيا عن طريق هيئة الامم وأنا لا أعتزم الدخول في تفصيلات هذه المشكلة الآن مكتفيا بالقول بانها ان لم تجد حلا فلن تكون للتدبيرات الاخرى أية قيمة دائمة .

ومنذ عام ١٩١٤ حتى الآن تعرض العالم بصفه مستمرة للهلع المتزايد ، وهلكت أعداد هائلة من الرجال والنساء والاطفال ، وجربت نسبة كبيرة جدا ممن كتب لهم البقاء على قيد الحياة الخوف من الموت . وعندما يفكر الغربيون فى الروس والصينيين وعندما يفكر الروس والصينيون فى الغربيين ، فهم يفكرون في بعضهم البعض أساسا على انهم مصدر للدمار والتخريب ، لا على انهم بشر عاديون لهم القدرة الانسانية العادية على الفرح والحزن . وبدا من الواضح أكثر فأكثر أن الاستخفاف هو المخرج الوحيد أمامهم من اليأس والقنوط ، كما بدا أنه لا يمكن ادراك المخرج الذى يمكن التوصل اليه عن طريق الامل المتزن والسياسية البناءة .ولكن اليأس الذى لايأبه بشىء ليس بالحالة الذهنية الوحيدة العاقلة فى العالم الذى نجد فيه أنفسنا ، ويكاد البشر عن بكره أبيهم فى أرجاء العالم أن يكونوا أسعد حالا وأكثر انتعاشا اذا توقف الشرق والغرب عن التشاجر والعراك . وليست هناك حاجة لان يطلب من أحد أن يتخلى عن أى شىء الا اذا كان هذا الشىء هو الحلم ببناء امبراطورية عالمية وهو حلم يفوق فى استحالته الآن أكثر المدن الفاضلة تفاؤلا . لقد توفرت لدينا الآن الوسائل التى لم تتوفر لأحد من قبل للحصول على فيض من الضرورات ووسائل الراحة التى نحتاج اليها فى خلق حياة طيبة كريمة ، واذا تحقق السلام استطاعت روسيا والصين أن تخصصا كل أوجه النشاط المنصرفة الآن الى التسلح لانتاج البضائع الاستهلاكية .

والمهارة العلمية الهائلة التى تتسبب فى انتاج الاسلحة النووية تستطيع أن تحيل الصحارى الى واحات مثمرة وتتسبب فى سقوط الامطار فى صحراء افريقية وصحراء جوبى وبالتخلص من الخوف ستنطلق طاقات جديدة وتحلق روح الانسان عالية وتصبح قادرة على الخلق والابداع والتجديد ، وستتبدد المخاوف القديمة السوداء التى تقبع فى أعماق أذهان الناس .

لن يكون هناك منتصر فى حرب تستخدم القنبلة الهيدروجينية ، ويمكننا أن نحيا معا أو نموت معا . وأعتقد اعتقادا راسخا انه لو ان الذين يدركون منا هذا وهبوا أنفسهم بقوة كافية من أجل هذا العمل فسنستطيع أن نجعل العالم يدركه كذلك . فالشيوعيون والمناهضون للشيوعية على حد سواء يفضلون الحياة على الموت . ولو وكل الامر اليهم فى وضوح وجلاء لاختاروا التدابير الضرورية للمحافظة على الحياة . وهذا أمل ينطوى على جهد ومشقة لأنه يتطلب من جانب الذين يرون المشكلة منا فى مجملها المعقد المتعرج انفاق طاقة هائلة فى الحث والاقناع اللذين يشوبهما دائما الادراك المؤلم بأن الوقت قصير كما يشوبهما التعرض لاغراض الهستريا التى تجىء نتيجة لتأمل خطر الهاوية

متمكنة . وعلى الرغم من ان الامل تكتنفه الصعاب الا أنه ينبغى أن يكون حيا ماثلا . وينبغى أن نؤمن به ايمانا راسخا برغم ما يمكن أن نتعرض له من تثبيط للهمم . وينبغى أن يلهم هذا الامل حياة عـــدد من الناس وربما لا يتجاوز قلة ضئيلة فى بادىء الأمر سيكتب لها التزايد تدريجيا حتى يجتمع شمل البشر وهـــم يطلقون صيحة الفرح العظيمة ليحتفلوا بنهاية القتل المنظم ولارساء قواعد عهد أسعد من أى عصر كان من نصيب الانسان حتى الآن .

التعقل والحرب النووية

مقـــدمة

فى كتيب لبرتراند رسل صدر عام ١٩٥٩ تحت عنوان « العقل والحرب النووية » يعلن الحكيم الكهل ما يلى :

١ ـ أسفه على سلك الغرب فى نيات الداعين لحملات السلام واتهامه لهم باليسارية وتنفير الرأى العام من القائمين بالدعوة الى السلام ٠

٢ ـ ان مصير الانسانية معلق فى الميزان من جراء الخطر النووى الداهم وأنه من الضرورى ايجاد حل يضمن للبشرية بقاءها ويقيها من الفناء ، فمصير الانسانيه أجل شأنا من المنازعات الايدولوجية بين الغرب والشرق ٠ ويؤكد رسل ان الموازنة أو التفضيل بـــين النظام البرلمانى الديمقراطى والنظام الدكتاتورى والشيوعى فى هـذه الآونة العصيبة كأساس للحياة الاجتماعية على حساب البقاء الانسانى ان هـــو الا عبث ظاهر واستهتار بالقيم الانسانية ٠

٣ ـ ان مشكلة السلام مشكلة العالم بأسره ولا بد من تضـــافر جهود جميع دول العالم لاقراره بما فى ذلك الدول المؤمنة بعدم الانحياز ٠

أخطار الحرب النووية

يعرض الجزء الاول من هذا الكتيب لشرح مخاطر الحرب النووية التى قد تعصف بالوجود الانسانى كله ويعتمد رسل فى تقديره لخطورة الموقف الدولى على تقرير وضعته لجنة خاصة من الخبراء الامريكان تعمل تحت رعاية « الجمعية الامريكية للتخطيط القومى » ويحمل هذا التقرير العنوان التالى « ١٩٧٠ من غير رقابة على الاسلحة : مضمون تكنولوجية الاسلحة الجديدة » ٠ وواضعو التقرير كما أشرنا من الخبراء الامريكان وهم بالاضافة الى ذلك قوم لا علاقة لهم مطلقا بالحملات الموجهة ضـــد الحرب النووية وبمعنى آخر هم طائفة من الخبراء التى لا يعنيهم التهويل فى أخطار الحرب النووية فى سبيل الدعاية لقضية السلام ، فهدفهـــا الاول والاخير هو استجلاء الحقائق الخاصة بالدمار النووى فى جـــدود الموضوعية التى يمكن لانسان أن يتصف بها ٠

يبنى هذا التقرير فروضه ونتائجه على أساس أن حربا شاملة لن تنشب حتى عام ١٩٧٠ ورغم هذا فالتقرير لا يستبعد احتمال نشـــوب حرب شاملة ٠ كما يجزم بأن الحرب الشاملة ناشبة لامحالة اذا استمرت الاوضاع فى العالم على ما هى عليه دون التوصل الى حل آخر ٠ ويخلص رسل من هذا الى أن هيستيريا الخوف والفزع ستصيب الشـــعوب وان نفقات التسلح ستزداد يوما بعد يوم تبعا لذلك ٠ وسيضطر الناس أمام هيستيريا الهلع لقبول الفاقة الاقتصادية ٠ وسينخفض مستوى المعيشة

الراهن فى أمريكا الى مستوى المعيشة فى كل من آسيا وافريقية بدلا من أن يرتفع مستوى هاتين القارتين حتى يصل الى ما أصابته أمريكا من رفاهية ورخاء لو أنصت العالم لصوت الحكمة والعقل واستخدم المعرفة التكنولوجية الحديثة من أجل السلام لا من أجل الاستعداد للحرب . كما ستؤدى هيستيريا الهلع بطبيعة الحال الى تقلص الحريات وانكماشها

لنلق نظرة مع الفيلسوف الكهل الى ميزانية التسلح كما وردت فى تقرير الخبراء الامريكان . ان أمريكا تنفق ٤٥ بليون دولار على التسلح سنويا . ويقول التقرير فى هذا الصدد (تخصص الولايات المتحدة ١٠٪ من مجموع الانتاج القومى فى الوقت الحاضر للاغراض العسكرية ، وتقدر ميزانية التسلح فى الاتحاد السوفييتى بـ ١٥٪ من جملة الانتاج القومى فيها) .. ويقول رسل ان العالم سيكون قد أنفق حتى عام ١٩٧٠ ما بين ١٥٠٠ بليون و ٢٠٠٠ بليون دولار اذا استمر جنون التسلح على هذا المنوال .

ويفضح رسل حلم العسكريين فى الغرب والشرق ، هذا الحلم المجنون الذى يهدف الى استخدام الاقمار الصناعية للاغراض العسكرية وذلك بتزويدها بأجهزة حاسبة الكترونية تجعل من الممكن توقيتها بحيث تمطر الموت وبالا على أرض الاعداء وتتوقف عند عبورها فوق أرض الاصدقاء .

ويستطرد رسل فيبين كيف أن العسكريين فى الغرب والشرق على حد سواء يعملون على نقل الحرب من كوكب الارض الذى نعيش عليه الى الفضاء ويستشهد على ذلك بشهادة الجنرال الامريكى بوت Putt التى أدلى بها أمام لجنة خاصة بالقوات المسلحة . فقد شرح الجنرال بوت أمام هذه اللجنة أن سلاح الطيران الامريكى يهدف الى اقامة قاعدة عسكرية فى القمر كما أوضح فى شهادته المزايا العسكرية الناجمة عن اقامة هذه المنشآت القمرية اذ أن اطلاق قذائف الموت من القمر الى الارض لا يحتاج الى طاقة كبيرة بسبب عدم وجود غلاف جوى حول القمر من ناحية وضعف جاذبيته من ناحية أخرى . وقد صرح الجنرال بوت بالحرف الواحد بأنه « من الممكن أن يزودنا القمر بقاعدة لرد الاعتداء ذات ميزة قصوى على دول الأرض » .. وفى تقديره أن الولايات المتحدة حتى بعد أن تندثر من على سطح الأرض نتيجة لهجوم روسى خاطف عليها تستطيع أن تدمر روسيا وتنتقم لنفسها عن طريق منشآتها فى القمر . وقد أيد وجهة نظر بوت العسكرية هذه ريتشارد . ا . هورنز السكرتير المساعد لسلاح الطيران للبحث والتطوير ورأى فيها خروجا من المأزق الذى فرضه التسلح النووى على كوكب الارض . واضطر أحد هذين السيدين الكريمين وهو الجنرال بوت أن يعترف فى آخر الامر أنه يمكن للاتحاد السوفييتى التوصل الى انشاء مثل هذه المحطات على سطح القمر كذلك غير أنه نصح الولايات المتحدة أن تسعى جاهدة الى السبق فى ميدان غزو الفضاء والمبادرة باحتلال كواكب أخرى مثل المريخ والزهرة نظرا لفوائدها العسكرية الجمة .

والغريب فى الامر كما يذكر رسل أن مثل هذه الاخبار ظلت فى

طى الكتمان بالنسبه للرأى العام وامتنعت الجهات الرسمية عن اذاعتها. ويقول رسل انه لو لم تنشر المجلة الاسبوعية أى · ف · ستون الصادرة فى ٢٠ أكتوبر عام ١٩٥٨ هذه المعلومات لما امكنه ان يحيط بها علما . ويفترض رسل ان الاتحاد السوفيتى يفكر فى مثل هذه المشروعات المجنونة وان كان يجهل كنهها · ويبدى الفليسوف الكبير اشمئزازه وفزعه من مشروعات العسكريين هذه التى تدنس طهارة السماء وتلطخ الاجرام العلوية باحقاد البشر وضغائنهم الصغيرة ومنازعاتهم الوضيعة التافهة · ويأسى رسل لحال الانسان الذى يملك من جوانب القوة الشىء الكثير ولكنه لا يتصف بالحكمة فى قليل أو كثير · ولكن الامل يحدوه أن ينغلب صوت العقل والتسامح فى هذا العالم المحموم على قوى الشر والظلام ·

وفى هذا السفر الصغير يحمل فيلسوف العقل والتسامح حملة شعواء على المنادين بسياسة حافة الهاوية سواء كان المنادى بها دالاس فى الغرب أو غيره فى الشرق ولا يكتفى رسل بالتنديد بهذه السياسة الخرقاء بل يفضح روح الاستهتار التى تتضمنها هذه السياسة فيذكر لنا ما ترامى الى سمعه من أن أصل سياسة حافة الهاوية مستمد من لعبة يمارسها بعض الشبان المستهترين والمنحرفين فى أمريكا · وتجرى اللعبة على النحو التالى : يختار متنافسان من قائدى السيارات شارعا كبيرا يفصله فى الوسط خط أبيض يمتد بطول الطريق · وتبدأ اللعبة بأن يتحرك أحد المتنافسين بسيارته فى سرعة جنونية بحيث يكون جانب السيارة التى يتولى قيادتها على طول الخط الابيض وفى نفس الوقت يتحرك نحوه المنافس الثانى من الاتجاه العكسى على الجانب الآخر من الطريق بنفس السرعة الجنونية وبحيث لا ينحرف هو أيضا بجانب سيارته عن الخط الابيض الذى يتوسط الطريق . فاذا حدث أن انحرف أحد المتنافسين بسيارته تفاديا للتصادم المروع والهلاك المحقق عيره زميله بأنه (كتكوت) وكان انحرافه بالسيارة دلالة على جبنه وهوان شأنه · ويتساءل رسل بأسلوبه الساخر الذى عودنا عليه كيف يمكن للعالم المتمدن أن ينظر الى من يمارسون هذه اللعبة التى تؤدى بشابين نظرته الى مستهترين لا خلاق لهما بينما يمجد الساسة الذين ينقلون لعبة الموت هذه الى المجال الدولى فيعرضون بذلك مئات الملايين من البشر للفناء ويخلع عليهم رداء الحكمة والحصافة !

ماذا سيحدث اذا نشبت حرب نووية ؟ يجيب رسل عن هذا السؤال بأسلوبه الساخر فيقول ان تقديرات الخبراء متباينة فى هذا الصدد فمنهم من يعتقد ان الحرب النووية لن تهلك الكثير اذ انها ستفنى نصف البشرية لا غير ومنهم من هم أكثر تفاؤلا فيذهبون الى الاعتقاد بفناء ربع البشر ولكن المتشائمين من الخبراء يرون ان الحرب النووية ستعصف بالوجود الانسانى من جذوره · ويعلق رسل على هذه التقديرات ساخرا فيقول اننا سنتبين مقدار الصدق فى كل منها بعد نشوب الحرب النووية لا قبلها ·

ويهزأ رسل من الفكرة الداعية الى استخدام « القنبلة النظيفة » فى

الحرب القادمة على اعتبار ان عبارها الذرى أفضل خطرا على الكيان الانساني وينتساءل كيف يمكن لنا أن نضمن ان « القنبلة النظيفة » ستستخدم بدلا من القنبلة الاخرى غير النظيفة فى حالة نشوب حرب ·

لا بد أن يفهم رجال السياسة فى العالم ان الشعوب ترغب فى البقاء وانها لا تكترث كثيرا بالمنازعات الايدلوجية وان الجانب السياسى فى حياة الانسان ضئيل كما ينبغى على الساسة فى العالم ان يدركوا الوشائج التى لا تنفصم والتى تربط الكيان الانسانى غربا وشرقا فالانسانية جمعاء تجمعها وحدة الامال والأفراح والاحزان · حتى الانسان الذى يعيش فى البلاد التى يتلقى أهلها تعليما سياسيا ينصرف الى مشاكل الحياة اليومية بعيدا عن السياسة ومنازعاتها فهو يأكل وينام ويحب ويقيم عواطف انسانية تربطه بأهله وعشيرته كما أنه يجب أن يفهم رجال السياسة مدلول هذه الحقيقة حتى لا يقيموا الدنيا ويقعدوها بعجيجهم الزائف عن مدى الخلاف بين النظام الديمقراطى والنظام الشيوعى · ان الذين يرضون لانفسهم وللجنس البشرى الهلاك سواء فى الغرب أو فى الشرق لانهم يفضلون الموت على الخضوع لنظام اجتماعى واقتصادى وسياسى يكرهونه هم فئة قليلة مريضة بالمشاحنات السياسية

ويعجب رسل من زيف أو غفلة بعض الغربيين الذين يبدون استعدادهم للتورط فى حرب نوويه دفاعا عن الحرية الديمقراطية ويتحداهم أن يستفتوا شعوب الارض قاطبة فى هذا الشأن وأن يطرحوا السؤال التالى على كل فرد من أفراد الارض حتى يتبينوا بأنفسهم اذا كانوا يمثلون ارادة الشعوب ورغباتها أولا ·· أتفضل أن تعيش تحت نظام سياسى واقتصادى يختلف عن النظام الذى نعيش فيه أو تفضل القضاء على الانسانية بأسرها؟ ولو أننا طرحنا هذا السؤال على أى انسان لا تهمنا بالجنون ورمانا بالللوثة وهو محق فى ذلك فبقاء الانسانية وسلامتها من الفناء فوق كل اعتبار ·

الخروج من المأزق النووى

ما الحل اذن ؟ لا بد من تقارب فى وجهات النظر الدولية لا بد أن نعيد الى أذهاننا الدروس التى تعلمناها فى القرنين السابع والثامن عشر وهى الانصات الى صوت العقل والتسامح · لقد نسينا الدرس الذى تلقيناه على يد « لوك » فيلسوف العقل والتسامح فى القرن الثامن عشر· لقد كنا عقلاء عندما تسامحنا فى الاديان وعندما آمنا بأن الحقائق الدينية يمكنها أن تعيش جنبا الى جنب فى وئام وسلام · وان الحروب الدينية أثر من آثار الماضى البغيض · لقد تعلم المسيحيون والمسلمون أن يعيشوا جنبا الى جنب كما أدرك الكاثوليك والبروتستانت حماقة اراقة الدماء بسبب الخلاف العقائدى ولكننا لم ندرك حتى الآن أهمية العقل والتسامح فى المجال السياسى ·

على الدول الكبرى أن تسعى مخلصة الى اقرار السلام لا الى المناورات السياسية التى تهدف الى تسجيل انتصارات دبلوماسية فى حرب الدعاية · ورسل لا يطالب أية دولة من الدول الكبرى بأن تتنازل

او تتخلى عما تراه مصلحة حيوية لها كما أنه لا يطالبها بالاستسلام من أجل صيانة السلام . يؤكد رسل ان هذا غير معقول وغير منتظر بأية حال من الاحوال . ولذلك يقترح ضرورة تجميد الاوضاع الراهنة في العالم والاحتفاظ بميزان القوى الدولي في الوقت الحاضر ويهدف رسل بتجميد الاوضاع الى تخفيف حدة التوتر العالمي تفاديا للمزيد من القلاقل والمنازعات التي تثيرها صحف الحرب الباردة . وليس معنى هذا أن يظل ميزان القوى على ما هو عليه . ولكن هذه التغييرات لا بد أن تتم بالطرق السلمية دون الالتجاء الى الحروب ودون التهديد بها . والاحتفاظ بميزان القوى كما هو عليه في الوقت الحاضر ليس الا خطوة تمهيدية من شأنها أن تخلق الجو المناسب لزيادة التفاهم الدولي توطئة للوصول الى حل شامل لكل المشاكل الدولية .

ويقترح رسل أن يبدأ طرفا النزاع باصدار بيان يتعهدان فيه بنبذ سياسة العنف وبعدم الالتجاء الى الحرب كأساس لحل المشاكل الدولية كما يتعهدان بصيانة ميزان القوى الدولي كما هو عليه وبعدم السعي الى تغييره عن طريق الاثارة والتحريض . كما يقترح رسل ضرورة ايقاف التجارب النووية وقبول الطرفين لمبدأ الخضوع للرقابة والتفتيش على الاسلحة بعد أن يتخلص الجانبان من تلك الريبة المتبادلة التي تقف حجر عثرة في سبيل الوصول الى تسوية سلمية للمشاكل الدولية .

وينصح رسل باقامة هيئة مشتركة دائمة للوساطة والمفاوضات بين الغرب والشرق ، لا تهدف الى ايجاد الحلول بل الى الاستطلاع والاستكشاف تمهيدا لايجاد الحلول وبمعنى آخر أن الهدف من تكوين هذه الهيئة هو خلق جو من الثقة المتبادلة . ويقترح رسل أن تكون هذه الهيئة محدودة الاعضاء بحيث لا تزيد عن ستة أعضاء : عضوين من الولايات المتحدة وعضوين من الاتحاد السوفيتي وعضو يمثل الغرب وعضو آخر يمثل الصين الشعبية وبالاضافة الى هؤلاء يعين عضوان آخران من دول الحياد ولضمان العدالة في ميزان قوى هذه الهيئة يختار أحد العضوين الحياديين من بلد تميل الى الاتحاد السوفيتي والعضو الآخر من بلد حيادية تميل الى الولايات المتحدة .

ويهدف رسل من تقليل أعضاء هيئة الوساطة والتفاوض هو التأكد من عدم تحولها في نهاية الامر الى منبر من منابر الدعاية وحلبة يستعرض فيها المتصارعون عضلاتهم الخطابية . ويشترط رسل أن يتمتع الاعضاء المعينون بثقة الحكومات التي يمثلون مصالحها . وتوفر هذه الثقة في الاعضاء تعتبر جوهرية حتى لا تشك الحكومات المعنية في طبيعة المقترحات أو التوصيات التي قد تتوصل اليها هذه الهيئة . ويشرح رسل الدور الذي ينبغي على الدولتين الحياديتين الممثلتين أن تلعباه فيقول ان وظيفة ممثليها هي السعي الى تقريب وجهات النظر بين الغرب والشرق اذا بدا أن هوة الخلاف بينهما تتسع كما أن عليهما التأكد من أن المقترحات المطروحة للبحث لا تنطوي على افتئات جانب على مصالح الجانب الآخر . ويجب على الدول الاعضاء اعفاء ممثليها في الهيئة من كافة المسئوليات الادارية التي تستلزم تفرغهم الكامل للاستطلاع

بالمفاوض ودراسة المشـــكلات المتعلقة دراسة مستفيضة • وينبغي على الهيئه أن تعمل في صمت بعيدا عن أضواء الصـــحافة وأجهزة الدعايه والاعلان حتى يكون الهدف من اجتماعهم هو الوصول الى الحقيقة لا الى تسجيل انتصارات دبلوماسيه • وعلى الاعضاء السته أن يجتمعوا بصفة متكررة بالطرق الرسميه وغير الرسميه ولا يحـق لاى من الاعضاء اذاعة شيء عن نتيجة هذه المشـــاورات الا بعد أن تكون جميع الاطراف قد اتفقت عليه • وعلى اللجنة أن تمسح مشاكل العالم كلهـــا ومصالحه المتعارضة في موضوعية وأن تحاول الوصول الى تسويات ليس من شأنها في مجموعها أن تضر بمصلحة أحد • واذا خسرت دولة مصلحة أو فائدة معينة في جزء ما من العالم فعلى الهيئة أن تجد سـبيلا لتعويض هـذه الدولة عن خسارتها في جزء آخر منه • كما أنه على الهيـــئة النظر الى مشاكل العالم كوحدة لا تتجزأ لا كمشاكل متفرقةوأجزاء منفصلة . ولابد للهيئة أن تحترم ارادة شـعوب الارض كلما أمكن ذلك . فنكل شـعب مطلق الحرية في اتباع نظام الحكم دون الآخر • ولكن رسل يستثنى من من ذلك بعض الحـالات النادرة والشاذة وهي التي يقتضي تحقيق ارادة شعب ما الى تشكيل خطر داهم وتهديد سافر لمصالح أحد أطراف النزاع فليس من المعقول بأية حال أن تسمح الولايات المتحدة لشعب بناما (على سبيل المثال) أن يقيم حكومة شيوعية على أراضيه لان في هـذا تهديدا مباشرا لمصلحة هذه الدولة الكبرى وهي لن تسكت عليه بطبيعة الحال • ويعود رسل فيؤكد أنه لا يطالب أيا من المعسكرين المتنازعين بالتضحية بمزايا يرى أنها حيوية بل هو يطالب فقط بتنسيق هذه المصالح بحيث لا يلحق ضررا بأي جانب في المجموع •

هناك مشكلتان لا بد للهيئة أن توليهما عنايتها • (أولا) لا بد من نزع السلاح ولا بد من العمل على عدم توسيع رقعة النشاط الذرى «من الخطر على السلام أن تتسع دائرة الدول المنتجه للاسلحة النووية ولا بد من الاقتصار في انتاج الاسلحة الذرية على أمريكا وروسيا الى حـــين الوصول الى تسوية عامة دولية • (ثانيا) لا بد من اجراء بعض التعديلات في الحدود الاقليمية لبعض الدول • وقد تسخط هـــذه التعديلات في الحدود الاقليمية بعض الدول ولكن يجب ارغام هذه الدول على قبولهـا اذا كانت في صالح السلام العالمي • وحل هاتين المشكلتين حـلا ناجحا رهين باقامة حكومة عالمية •

مشكلات عالمية لا بد لها من حل

قبل أن نتعرض لمشروع رسل باقامة حكومة عالمية وموقف هـذه الحكومة من الحكومات المحلية لا بد لنا من أن نستعرض رأيه في بعض المشاكل الدولية التي يرى في حلها دعامة للسلام العالمي • يقسم رسل المشاكل الدولية الحساسة في العالم الحديث الى ثلاث مناطق :

١ ــ منطقة أوربا : وأهم مشاكلها توحيد المانيا • وفي نظر رسل أن السلام لا يمكن أن يدوم الا اذا اتحدت المانيا ولكن شعوب روســيا تشعر بالقلق الشديد نحو اعادة تسليح المانيا فخبرات روسيا مع المانيا

فى الحربين العالميتين ببرر هـذا القلق فهو قلق طبيعى مفهوم .ولا بـد لروسـيا ان تامن جانب المانيا . ولذلك يقترح رسل الحد من تسليح المانيا بحيث لا تصبح خطرا يهدد الاتحاد السوفييتى كمـا كانت فى الماضى .

ويذهب رسل الى ابعد من ذلك فيقترح نزع السلاح من وسـط أوروبا وتصفية القواعد العسكريه فى غرب اوروبا وشرقها . حقيقه ان أمريكا لا نستطيع آن تصل الى عريمتها روسيا الا عن طريق انشاء قواعد ذريه فى غرب آوروبا وانها بتصفيتها لهده القواعد تضحى بجانب ممتاز من مركزها الاستراتيجى . ولكن الولايات المتحدة ستحصل على مايعادل هده الخسارة من الفوائد فعندما ترتفع القبضة الروسية على شرق أوروبا ستتخلى بعض الدول الشرقية عن الحكم الشيوعى مثـل ألمانيا الشرقية والمجر وربما بولندا وتفضل عليه نظاما اشتراكيا برلمانيا .

٢ ـ الشرق الاوسط : ينحى رسل باللائمة على الغرب لانه يناصب القومية العربيه العداء لان هدا قد أعطى للاتحـاد السوفيتى فرصه لكى يظهر بمظهر الصديق للدول العربية ويقترح رسل أن تحمى الـدول الكبرى أية دولة فى المنطقة ضد توسع دولة أخرى .

٣ ـ منطقة شرق آسيا : لا يرى رسل حكمة فى استبعاد الصين الشيوعية من الامم المتحدة وعلى الرغم من انه يتهم الصين الشـعبية بالنيات التوسعية الا انه غير راض عن تجاهل الغرب لحقيقة الامر الواقع واصراره على التعامل مـع تشاى كاى شك باعتبار انه الممثل الشرعى للصين ويتناول رسل مشكلة فرموزا فيقول ان فرموزا لابد أن تعود فى نهاية الأمر الى الصين ، الأرض الأم ولكنه ينصـح بأن تعطى فرموزا لتشاى كاى شك مدى الحياة لتصبح بعد وفاته جزءا لايتجزأ من الأراضى الصينية .

الحكومة العالمية

عندما يتوافر الجو المناسب يقترح رسل انشـاء حكومة عالمية . وقد نخطىء فنظن أن الدعوة لحكومة عالمية دعـوة يسارية أو قريبة من اليسارية وليس هذا بالصحيح فقـد دافـع فريق من حزب المحافظين البريطانى عن قيام حكومة عالمية ورأوا فى انشاء هذه الحكومة الحـل الحاسم لكل مشاكل الانسانية وأصدر عشرة من أعضاء البرلمان المحافظين كتيبا بعنوان (سلطة للامن العالمى) يشرحون فيه وجهة نظرهم الخاصة بانشاء حكومة عالمية وهـم يعتمدون فى دعوتهم على بيانات وتصريحات أدلى بها ماكميلان ودنكان سانديز وزير الدفاع البريطانى . ويدرك رسل الصعاب التى تعترض تنفيذ مثل هذا المشروع وهو يدرك أيضـا أنه مشروع أقرب الى الخيال منه الى الحقيقة فى الوقت الحـاضر . ولكنه يريد من الانسانية أن تسعى الى تحقيق هذا الهدف الكبير .

يقول رسل انه على الرغم من فشل عصبة الأمم فى الماضى والأمم المتحدة فى الوقت الحاضر فى اقرار السلام الا انه من الممكن تطوير الامم المتحدة بحيث تصبح نواة لحكومة عالمية .

وفيما يلي مقترحات رسل بصدد هذه الحكومة العالمية :

١ – لا بد من أن تكون لهذه الهيئة سلطة تنفيذية تستطيع بها وضع قراراتها موضع التنفيذ ولا بد لهذه الهيئة العالمية من انشاء جيش عالمي قوي يضمن للقرارات الدولية الاحترام والتنفيذ ·

٢ – يقترح رسل تقسيم العالم الى مناطق فيدرالية يراعى فيها التساوي في عدد السكان بقدر الامكان وتسمى هذه المناطق بالفيدراليات. وليست الحكومة العالمية إلا اتحادا عاما لهذه الفيدراليات والغرض من مراعاة التساوي في عدد السكان في حدود الامكان هو ضمان تمثيل ارادة العالم تمثيلا صحيحا فليس من المعقول أن يكون لمنطقة أو دولة صغيرة في تعداد سكانها مثلما يكون لدولة كبيرة مكتظة بالسكان في قدرتها على التأثير في القرارات الدولية · وتخضع هذه الفيدراليات لسلطة عليا هي سلطة الحكومة العالمية ·

٣ – يجب الغاء حق الفيتو المعمول به في مجلس الامن الذي لايضم سوى حفنة من الدول ، فمن شأن حق الفيتو أن يعطل تنفيذ سائر القرارات التي يكاد يجمع عليها المجلس حينما يحلو لدولة ممثلة في المجلس أن تقوض أركان هذه القرارات ·

٤ – بما ان الغرض الاساسي من انشاء حكومة عالمية هو اقرار السلام فليس من حق هذه الحكومة العالمية أن تتدخل في المسائل الداخلية لاية دولة فيدرالية فلها أن تختار أي دين وأي نظام اجتماعي وسياسي واقتصادي يحلو لها ·

٥ – الغرض من انشاء قوة ضاربة تابعة للأمم المتحدة أو الحكومة العالمية هو القضاء على كل محاولة من جانب أية فيدرالية لتعكير صفو السلام العالمي · وتصبح الاسلحة الذرية حكرا للحكومة العالمية · ودور السلاح الذري في العالم الحديث هو نفس الدور الذي لعبه البارود في الماضي وهو منع أية دولة قد يعن لها الاستقلال عن الحكومة المركزية · ففي الماضي كان الامراء والاقطاعيون يحتمون بقلاعهم متحدين سلطة الحكومة المركزية ولكن البارود مكن الحكومة المركزية من السيطرة والضرب على أيدي من تسول لهم انفسهم الاستقلال والانفصال ·

٦ – لا بد أن يراعى في تكوين وحدات القوات المسلحة التابعة للحكومة العالمية أن تشتمل كل وحدة على كل الجنسيات في العالم ·

ويهدف رسل من هذا الاختلاط الى منع الجنود التابعين لجنسية واحدة من التكتل في صعيد واحد فلو أن الهيئة العالمية أصدرت لوحدة من وحدات جيشها أمرا بالتحرك للعمل ضد دولة تحاول تعكير صفو السلام العالمي وكانت كل هذه الوحدة أو غالبيتها تنتمي الى هذه الدولة الخارجة عن القانون الدولي لعمدت الى التلكؤ في تنفيذ الأوامر أو تعطيلها اذا كان ذلك في مقدورها ·

وعندما يقترح رسل على الحكومة العالمية أن تحتكر السلاح النووي وهو لا يفكر في استخدامه ضد أية منطقة يحتج بأنها ترفض الخضوع

لأحكام القانون الدولى فالدولة المتشاغبة فى نظره هى فى وضع المجرمين العاديين بالنسبة للدولة التى يعيشون فيها والدول لا تلجا الى استخدام الجيش وعتادها الحربى لتعاقب المجرمين والخارجين على القانون والضرب على ايديهم ·

٧ ـ لعل أخطر اعتراض على انشاء حكومه عالمية هو ان القـــوة الضاربة المسلحه التابعة لها قد يعن لها القيام بانقـــلاب للسيطرة على مقاليد الحكم فى العالم وللضغط على السلطات المدنية ويعترف رسل انه من الناحية النظرية يجوز حدوث هذا الامر ولكنه ينصـح باتباع الطرق المعروفة التى تمـــكن للسلطة المدنية حتى فى ألمانيا النازية وروســـيا الشيوعية والولايات المتحدة الاحتفاظ باســــتقلالها عن أجهزة الجيش وسيطرتها ·

لا بد من تغييرات هامة فى تفكير الانسان الحديث

لا بد للعالم أن يعيد النظر فى أسلوب تفكيره من جديد ولا بد له ان يختط أسلوبا جديدا يتمشى ومقتضيات العصر الحديث · لا بـــد للعالم أن ينصت الى صوت العقل والتسامح ولا بد له من نبـذ التعصب الذى يعمى الانسان عن فضائل غيره ويؤدى الى تمجيد الانسان لفضائله التى يتوهم انه يتحلى بهـا دون خلق الله · والانسان المتعصب موقن انه على صواب وان غـــيره على خطأ دون أن يخطر له اننا جميعا بشر غـــير منزهين عن الخطأ ·

وفى معرض حديثه عن القومية يرى رسل انها مشروعة اذا كانت تناضل عن الحرية والاستقلال ضد دولة غاصبة ولكنه لا يقبل بحال أن تتحول هذه القومية الى قوة معتدية تسعى الى التوسع والسيطرة · ويدفع رسل عن نفسه تهمة الايمان بالمسالمة التى تبلغ مبلغ الاستسلام فيقول انه لم يكن فى أى يوم من الايام من المؤمنين بمبدأ مهادنة الاعداء والخضوع لهم كغيره من دعاة الســلام ففى نظره أن الحرب مشروعة واجبة فى بعض الحالات وهو لا يقبل أن يتكرر فى العصر الحديث ما حدث فى المــاضى عندما قوضت جحافل البربر أركان الحضـــارة فى الــدولة الرومانية ويطالب رسل باجراء تغيير شامل فى نظرة العـــالم التعليمية فهى فى الوقت الحاضر نظرة ضيقة تقـوم على التعصب والافق المحدود ومن رأيه أن ينال علم التاريخ بالذات جانبا جوهريا من التغيير فقـد دوجت كتب التاريخ فى جميع الدول على تمجيد تاريخها والتعصب لاسلوب حياتهـا والمبالغة فى شأن الــدور الذى لعبته فى اقامة الكيان الحضارى · يجب على كل انسان أن يدرك سخافة هـــذا التفكير وأن يدرك أن الحضارة الانسانية والتقدم البشرى لم يقـــوما على أكتاف دولة معينة دون دول العالم فقد أسهمت كل الانســانية فى بناء صرح الحضارة ومن العبث أن تفخر أية دولة بانها أرست قواعد هذا الكيان الحضارى فهذه النظـرية تفرق ولا تجمع ، تنشر العداوة ولا تبذر الحب ·

يقول رسل انه سبق له فى الماضى أن اقترح أن تقـــوم المدارس والمعاهد التعليمية بتدريس كتب تاريـــخ قام بكتابتها أجانب وعندما

يقترح رسل تدريس الكتب التى قام بتأليفها أجانب يدرك تماما ان هذه الكتب متحيزة كسائر الكتب الاخرى ودفاعه الجدلى عن هذا هو ان كتب التاريخ المفررة أصلا مليئة بالمغالطات والتحيز وان التحيز الموجـود فى كتب الاجانب للتاريخ سـيعادل الاثر السىء الذى قـد خلفته الكتب الاصلية ٠

ولا بد لروح المغامرة في الانسان أن تجد لها تنفيسـا غير الحرب والعلم الحديث بامكانياته الهائلة التى لا تحـد ، يمكنه أن يستنفد فى الانسان طاقة المغامرة والكشف والاستطلاع ولو أمكن العالم أن يستبدل الرغبة في المغامرة والكشف العلميين بالقتال والحرب لحظيت الانسانية بسعادة عظمى ٠

موقف راسل من الحرب العالمية الثالثة

من كتابه « هل للانسان مستقبل ؟ »

سأبدأ بأن أطلب من القارىء ان ينسى فى هذه اللحظة الراهنة تفاصيل التاريخ الحديث ، والاحتمالات السياسية التى تتضمنها المستقبل القريب . وسأطلب منه أيضا أن ينسى ما يحب وما يكره ما يفضل وما يمقت ، كما ينسى معتقداته الاخلاقية فيما هو خير وما هو شر . فأنا أحب أن أضع فى الاعتبار هنا ، بطريقة علمية محضة واسلوب بعيد عن التحيز تماما ، الشروط التى لابد من توافرها لكى يقدر للانسان أن يستمر حيا لأجل طويل .

وفيما يتعلق بالشروط الطبيعية ، يبدو أنه ليس هناك سبب وجيه للاعتقاد بأن الحياة ، بما فيها الحياه الانسانية ، لن تستمر لعدة ملايين من الأعوام ، فالخطر لا يكمن فى بيئة الانسان الطبيعية أو البيولوجية بل فى الانسان نفسه . لقد أمكن للانسان أن يبقى على قيد الحياة حتى الآن بسبب جهله (١) . أما وقد فقد هذا القدر المفيد من الجهل ، فهل يمكنه أن يستمر فى البقاء على قيد الحياة ؟ .

هناك نوع من البقاء المؤقت بعض الشىء ، وهو أمر ليس بعيد الاحتمال كلية . فمن الجائز ان تترك حرب نووية فى المستقبل القريب بعض الناس على قيد الحياة ، ولكنها لن تبقى على اى شىء من أجهزة الحضارة . وقد يظل الشغل الشاغل للباقين على قيد الحياة منحصرا لمدى طويل فى الحصول على الطعام ، كما يجوز أن ينتهى الأمر بالانظمة الاجتماعية الى الزوال التام من حياتهم ، وأن يصبحوا عاجزين تماما عن نقل المعرفة والأساليب العلمية الى الاجيال القادمة .

فى مثل هذه الظروف ، قد يكرر الانسان تاريخ المائة الف عام الماضية ، فبعد أن يتوصل فى نهاية المطاف الى ما وصلنا اليه من حكمة فى الوقت الحاضر قد يعجل للمرة الثانية بالسقوط ، عن طريق تورطه فى حماقة تضارع حماقتنا . هذه صورة ممكنة الوقوع لبقاء الانسان على قيد الحياة ، ولكنها ليست بالصورة التى تبعث على الكثير من الارتياح .

واذا افترضنا أن الانسان سيظل قادرا على الأساليب العلمية ،

---

(١) يدأب برتراند رسل على ترديد هذه الفكرة فى كتاباته ، وهو يرى أن استمرار الحياة على سطح الارض رغم كل الحروب الماضية كان نتيجة لنعمة جهل الانسان وعدم كفاءته فيما يتعلق بوسائل الدمار .. أما الآن وقد تبدد جهله وامتلك الوسائل العلمية الفتاكة فيمكنه القضاء على الجنس البشرى بأكمله . « المترجم »

فما هي الطرق الممكنة التي قد يتوصل بها للهرب من الدمار الشامل ؟ ونحن الآن بصدد سؤال أكثر تحديدا من السؤال التالي : « هل يمكن للانسان أن يبقى على قيد الحياة ؟ » ، فنحن الآن نسأل : « هل يمكن للانسان العلمي أن يبقى على قيد الحياة ؟ » . انني لا أثير مجرد السؤال عما اذا كان سيستمر على قيد الحياة خلال عشرة الأعوام القادمة ، ولا حتى المائة عام القادمة . فقد يتحايل الانسان على البقاء حيا خلال فترات من الخطر الجسيم ، ويحالفه في هذا الحظ السعيد . ولكن لا يمكن أن نتوقع أن يستمر الحظ السعيد حليفا له الى الأبد . وسواء طال الوقت أم قصر ، فان المخاطر التي يسمح الانسان لها بالاستمرار ستقتص منه .

لهذه الأسباب ، اخشى أن يكون في حكم المؤكد ، أن الانسان العلمي لن يبقى على قيد الحياة طويلا اذا قدر للفوضى الدولية الحاضرة أن تستمر . وطالما أن القوات المسلحة تأتمر بأمر أمم بمفردها ، وبأمر مجموعات من الأمم ليست على درجة كافية من القوة لكي تخضع العالم بأسره لسيطرة لا ينازعها فيها منازع ــ طالما أن هذا الوضع قائم فانه يكاد يكون من المؤكد أن الحرب ستنشب ان آجلا أو عاجلا ، وطالما ان الاسلوب العلمي ما زال مستمرا ، فستزداد الحرب قدرة على الفتك والتدمير .

« آلة يوم الحشر »

هناك بالفعل امكانيات تقشعر من هولها أبدان حتى المدافعين عن القنابل الهيدروجينية . فـ « آلة يوم الحشر » التي تستطيع أن تفنينا جميعا يمكن صنعها ، بل لقد تم صنعها بالفعل حسبما نعلم .

وأرخص نوع للدمار اقترح حتى الآن هو قنبلة الكوبالت . وهي تشبه تماما القنبلة الهيدروجينية الموجودة حاليا ، ولا تختلف عنها سوى أن غلافها الخارجي يتكون من الكوبالت وليس من اليورانيوم . وسينتج عن تفجير هذه القنبلة ضرب مشع من الكوبالت، ينتشر ببطء . ولو فجر عدد كاف من قنابل الكوبالت لاندثر سكان العالم برمتهم في ظرف سنوات قليلة .

ولا تعدو قنبلة الكوبالت أن تكون وسيلة واحدة لا غير من وسائل الابادة والفناء . فمهارات الانسان في الوقت الحاضر تستطيع أن تستحدث الكثير جدا من هذه الوسائل ، ومن غير المستبعد الا تتورع الحكومات الحاضرة عن استعمال بعضها .

ولمثل هذه الأسباب ، يبدو من المؤكد أن الانسان العلمي لن يستطيع أن يظل على قيد الحياة لمدى طويل ، ما لم توضع كل الاسلحة الأساسية للحرب وكل وسائل التدمير الشامل في أيدي سلطة واحدة ، تصبح نتيجة لاحتكار السلاح ذات قوة ضاربة لا سبيل الى مقاومتها ، واذا

حدث أن تعرضت للتحدى المفضى الى الحرب استطاعت أن تسحق اى تمرد على سلطانها خلال أيام محدودة دون أن يصاب أحد غير المتمردين انفسهم بأذى كبير . ويبدو من الواضح أن هذا شرط لا غنى عنه مطلقا لاستمرار الحياة فى عالم يملك فى حوزته المهارة العلمية .

هناك طرق مختلفة قد يتحقق بها مثل هذا العالم . فلو أن أحد الجانبين كان يملك القنبلة الهيدروجينية ، وذلك قبل أن يتوصل الجانب الآخر الى اكتشافها لكان من الجائز أن يتحقق هذا العالم بفعل حرب نووية يخرج منها هذا الجانب مظفرا ، ويكون قادرا على املاء ارادته دون أن تواجهه مقاومة مجدية . هذا الاحتمال لم يعد له وجود ، ولا يستطيع أحد أن يقدر على وجه التأكيد مدى الدمار الذى تسببه حرب نووية تستعمل فيها الأسلحة الراهنة . ويجب علينا جميعا أن نامل فى استمرار هذه الحالة التى ينعدم فيها التأكيد .

من الممكن بعد حرب نووية بين دول حلف شمال الاطلنطى وبين دول حلف وارسو ، أن تحتفظ بعض الدول المحايدة بدرجة من التماسك الاجتماعى تساعدها على أن تحفظ الحضارة من الاندثار فاذا جعلت الصين الحكمة رائدها وبقيت على الحياد فى مثل هذه الحرب ، واذا هبت الريح من الشرق طيلة الايام القليلة التى تستمر فيها الحرب ، فقد تصبح الصين فى وضع يسمح لها بالسيطرة على العالم . أما اذا كانت الصين احدى الدول المتقاتلة ، أو اذا هبت الريح من الغرب فان سيادة العالم قد تكون من نصيب حلف يضم جنوب أفريقيا واستراليا .

وفى أى من هذه الحالات ، قد ترغم الأمة أو الامم الباقية على قيد الحياة فلول السكان القليلة فى الدول التى كانت دولا كبرى فى يوم من الايام على الاستسلام والخضوع لحكم استبدادى فى عالم تستحيل فيه مقاومة سلطان الدول التى قدر لها البقاء .

هذه ، فيما نتصور ، احدى الطرق التى قد يمكن توحيد العالم بها . وهى ليست بالطريقة البهيجة ، كما أنها ليست بالتأكيد السبيل الذى ترحب به اى من الدول الكبرى التى تملك الآن الأسلحة النووية . وعلى أية حال ، فانا لا اعتقد على الاطلاق فى احتمال وقوع مثل هذه النتيجة الناجمة عن حرب نووية ، اذ أن الاحتمال الاكبر بكثير أن يصبح الكيان الحضارى مستحيلا فى البلاد المحايدة والبلاد المحاربة على السواء .

السبيل الى منع الحرب

سيكون السبيل المرغوب فيه أكثر من هذا بكثير والذى يضمن الحصول على سلام عالمى، عن طريق الاتفاق بين الدول طواعية واختيارا

لكى تجمع ما لديها من قوات مسلحة ، وتخضع لهيمنة سلطة دولية متفق عليها . وقد يبدو هذا فى الوقت الحاضر أملا بعيدا وخيالبا ، ولكن هناك ساسة عمليون يعتقدون عكس ذلك .

فقد قال المستر ماكميلان (فى مجلس النواب فى مارس ١٩٥٥) عندما كان وزيرا للدفاع متحدثا بلسان الحكومة :

« بالنسبة لمشكلة نزع السلاح بأسرها فان غرضنا بسيط ، وسجلنا نظيف ، ان نزع السلاح الحقيقى يجب أن ينهض على مدأين بسيطين ولكنهما حيويين . يجب أولا أن يكون شاملا ، وأعنى بهذا أنه يجب أن يشمل كافة الأسلحة ، القديم منها والجديد ، التقليدى وغير التقليدى . ويجب أن تمدنا الهيئة المسيطرة على نزع السلاح بسلطة دولية فعالة — أو فوق القومية ، اذا شئنا هذا التعبير — تتمتع بقوة حقيقية . وقد يقول أعضاء المجلس الموقرون أن هذا معناه رفع مكانة الأمم المتحدة ، أو أية سلطة غيرها ، حتى تتحول الى نوع من الحكومة العالمية . ولو تم هذا لما كان فى الأمر ما يضير . وسيكون هذا على المدى البعيد المخرج الوحيد أمام الانسانية » .

واستطيع أن أذكر أناسا آخرين عبروا عن آراء مماثلة وليسوا من الحاكمين ولا هم يفتقرون الى الحنكة السياسية ، ولكنى لست مهتما فى الوقت الحاضر ببحث الامكانية العملية لخلق حكومة عالمية ، ولكنى متشغول باستمرار بقاء المجتمع المتحضر .

من الممكن خلق نوع ما من الحكومة العالمية دون أن يتحقق استقرار السلام العالمى . قد يحدث هذا مثلا لو أن الدول المختلفة، التى تشترك بالاسهام فى القوة المسلحة للحكومة العالمية ، أمدت هذه الهيئة بفرق عسكرية قومية قد تحتفظ بوحدتها القومية ، لحكومتها القومية فى وقت الشدة والأزمات بدلا من أن تدين بالولاء لسلطة دولية . ولعل من الجدير بالذكر أن نقدم مجملا « لدستور عالمى » من الممكن وضعه بحيث يستهدف تجنب مثل هذه الاخطار . وهذا المجمل مجرد اقتراح بطبيعة الحال ، وهو ليس بالنبوءة بكل تأكيد . فغرضى فحسب هو أن أوضح أن وضع دستور عالمى لمنع الحرب مسألة ممكنة .

سلطة عسكرية عليا

اذا شاءت الحكومة العالمية أن تؤدى وظيفتها ، فيجب أن يكون لها سلطة تشريعية ، وأخرى تنفيذية ، وأن تكون لها سلطة عسكرية لا سبيل الى مقاومتها . والقوة العسكرية التى لا تقاوم هى أهم الشروط ، وهى أيضا أكثرها صعوبة عند التنفيذ . ولذلك فسأبدأ بمعالجتها .

ستجد كافة الدول نفسها ملزمة بالوصول الى اتفاق من شأنه أن يخفض القوات المسلحة فى أية دولة الى المستوى الضرورى لأعمال البوليس الداخلية · وينبغى ألا يسمح لأية دولة أن تحتفظ بالأسلحة النووية أو أية وسيلة أخرى للخراب الشامل · وينبغى أن تكون للحكومة العالمية سلطة التجنيد من كل دولة ، وسلطة صنع ماتراه لازما من الأسلحة · وفى عالم شينزع السلاح عن الدول المنفصلة فيه ، لن توجد ضرورة لكى تكون القوات العسكرية للحكومة العالمية كبيرة للغاية ، ولن تشكل هذه القوات عبئا باهظ التكاليف على كاهل مختلف الأمم الأعضاء ·

ومن الضرورى لمنع الانحراف نحو الولاء القومى فى أى جزء من القوات الدولية أن تشتمل كل وحدة كبيرة بعض الشىء على جنسيات مختلفة · فلا ينبغى أن تكون هناك فرق أوربية أو فرق آسيوية أو فرق افريقية أو فرق أمريكية · بل ينبغى أن يكون هناك فى كل مكان وكلما أمكن ذلك مزيج متعادل من الجنسيات (١) · وينبغى أن نعطى القيادات العليا ، كلما استطعنا الى ذلك سبيلا ، الى أناس من دول صغيرة لايداعبها الأمل فى السيطرة على العالم · ولابد بطبيعة الحال من أن يتوفر للحكومة العالمية الحق فى التفتيش حتى تضمن أن نصوص نزع السلاح متبعة ومعمول بها فى كل دولة ·

وبطبيعة الحال ، سيكون دستور الهيئة التشريعية دستورا فيدراليا · وينبغى على الدول المنفصلة أن تحافظ على استقلالها فى كل شىء لا يتعلق بالحرب أو السلام · وتجابه أى دستور فيدرالى صعوبة عندما تكون الوحدات مختلفة جدا فى الحجم · هل ينبغى عند التمثيل أن يكون لكل وحدة نفس الحق فى التصويت أم أن تتناسب القدرة التصويتية مع عدد السكان ؟

لقد أمكن فى أمريكا كما نعرف جميعا التوصل الى حل وسط بارع ، وذلك بتطبيق مبدأ التمثيل على مجلس الشيوخ وآخر على مجلس النواب · ولكنى أعتقد على أية حال أنه من الأصلح تطبيق مبدأ مغاير لما هو متبع فى الولايات المتحدة عند انشاء مجلس التشريع العالمى ·

أعتقد أنه ينبغى أن تكون هناك فيدراليات فرعية متساوية فى عدد سكانها على وجه التقريب ، كما ينبغى انشاء هذه الفيدراليات بحيث

---

(١) هذه الفكرة سبق لبرتراند راسل أن رددها فى كتابه « التعقل والحرب النووية ·
Commonsense and Nuclear Warfare. (المترجم)

يتوخى فيها أن تكون على قدر من التجانس والانسجام ، وأن تربط بعدة مصالح مشتركة كلما أمكن ذلك ·

وكلما اشترك عدد من الدول في الانضواء تحت لواء احدى هـــذه الفيدراليات الفرعية ، فعلى الحكومة العالمية أن تدخل في اعتبارها العلاقات الخارجية بين الفيدراليات فقط دون تدخل من جانبها فى العـــلاقات بين الدول المختلفة الداخلة فى أية فيدرالية الا اذا كانت هذه العلاقات تنطوى على خطر الحرب أو تتضمن الاتيان بعمل فيه انتهاك للدستور ·

وستختلف كيفية تشكيل هذه الفيدراليات ، دون شك باختلاف الوقت الذى يتم فيه هذا التشكيل · فلو تم هـــذا التشكيل فى الوقت الحاضر فان الانسان يستطيع أن يقترح الترتيب الآتى :

١ ـ الصـــين ·

٢ ـ الهند وسيلان ·

٣ ـ اليابان واندونيسيا ·

٤ ـ العالم الاسلامى من الباكستان الى مراكش ·

٥ ـ افريقيا الاستوائية ·

٦ ـ الاتحاد السوفييتى والدول التابعة له ·

٧ ـ غرب أوربا وبريطانيا وايرلندا واستراليا ونيوزيلندا ·

٨ ـ الولايات المتحدة وكندا ·

٩ ـ أمريكا اللاتينية ·

وتشكل بعض البـــلاد التى لا تدخل ضمن هذا التقســـيم بعض الصعوبات : مثل جنوب افريقيا ، وكوريا ، ومن المستحيل التخمين سلفا بما قد يكون فى أية لحظة بالذات أحسن ترتيب لمثل هذه الدول ·

سيادة القانون :

ينبغى أن تمثل كل فيدرالية فى مجلس التشريع العالمي بنســـبة عدد سكانها · ولا بد من وجود دستورين : دستور يحدد علاقة الفيدراليات الفرعية بالفيدراليات العالمية ، ودستور آخر لكل فيدرالية فرعية تكون الفيدرالية العالمية ضامنة له ·

وستؤازر الحكومة العالمية الفيدراليات الفرعية والدول الأعضـــاء

التى تتكون منها فى أى اجراء دستورى . ولا ينبغى لها أن تتدخل فى الشئون الداخلية للفيدراليات الفرعية الا فى حالة اتيان أية فيدرالية بعمل يخرق الدستور ، كما ينبغى تطبيق نفس هذا المبدأ على العلاقات بين أية فيدرالية فرعية ومكوناتها من الدول القومية .

ما هى حدود السلطة الواجب تخويلها لمجلس التشريع العالمى ؟ فى الاعتبار الأول ، لا ينبغى أن تصبح أية معاهدة سارية المفعول الا اذا أقرها هذا المجلس التشريعى الذى يجب أن يخول كذلك سلطة اعادة النظر فى المعاهدات الموجودة حاليا اذا جدت ظروف تجعل من المستحسن القيام بمثل هذا الاجـراء . كما ينبغى أيضـا أن يكون من حق مجلس التشريع العالمى أن يعترض على نظم التعليم التى تنتهج سياسة قومية عنيفة قد تشكل خطرا على السلام (١) .

وستدعو الحاجة الى انشاء مجلس تنفيذى ايضا ، ارى أن يكون مسئولا أمام المجلس التشريعى . وعلاوة على الاحتفاظ بالقوات المسلحة، فوظيفة المجلس التنفيذى الرئيسية تتلخص فى ازاحة الستار عن أى انتهاك لحرمة الدستور العالمى تقوم به أية دولة قومية أو مجموعة من الدول ، وتوقيع العقاب عند الضرورة على القائمين بأمر هذا الانتهاك .

وهناك مسألة أخرى بالغة الأهمية وهى مسألة القانون الدولى . فالقانون الدولى فى الوقت الحاضر على قدر ضئيل جدا من القوة . ومن الضرورى أن يمنح تنظيم قانونى ـ كمحكمة العدل الدولية فى لاهاى ـ سلطة تمثل نفس السلطة المخولة للمحاكم القومية .

واكثر من هذا ، فانى اعتقد انه يجب أن يكون هناك قانون عقوبات دولى يحاكم بمقتضاه من يرتكبون جرائم شائعة ومستحبة فى بلادهم . لقد كان من المستحيل فى محاكمات نورمبرج مثلا أن يشعر الانسـان بعدالة الأحـكام الموقعة كنتيجة للنصر فى الحـرب ، رغم أنه كان من الواضح ايضا أنه كان ينبغى ايجاد وسيلة قانونية لانزال العقاب على أقل تقدير ببعض الذين أدانتهم المحكمة .

واعتقد انه اذا ارادت مثل هذه الحكومة العـالمية ان يكتب لها النجاح فى الاقلال من الدوافع الباعثة على الحرب ، فلابد لهـا من ان تعمل جاهدة على الاقتراب الدائم من المساواة الاقتصادية فى مسـتوى المعيشة فى انحاء العالم المختلفة . فطالما ان هناك بلادا غنية وأخـرى فقيرة فسيكون هناك حسد من الجانب الآخر . ولذلك فانه يجب أن

---

(١) يجب ملاحظة أن برتراند راسل يبـارك القوميات المناضلة فى سبيل حريتها واستقلالها ، ويدين القوميات التوسعية المعتدية .
(المترجم)

تكون محاولة السير نحو المساواة الاقتصادية جزءا من السعى للحصول على سلام دائم وأكيد .

وعلى اية حال فهناك احساس عام منتشر بكثير من الاعتراضات القوية على انشاء حكومة عالمية . والقومية منشأ قيام أشد هذه الاعتراضات ، لقد تزايد الشعور المشايع للحرية القومية بسرعة فى غضون المائة والخمسين عاما الأخيرة ، واذا قدر للحكومة العالمية ان ترسى قواعدها فعليها أن تأخذ فى اعتبارها هذا الشعور وأن تعمل كل ما فى وسعها لارضائه .

والناس الذين يجادلون مدافعين عن الحرية القومية التى لا تخضع لأية قيود لا يدركون أن نفس الأسباب التى يستندون اليها تبرر الحرية الفردية غير المقيدة . اننى لن أسلم لاى انسان يحب الحرية ، لأنه اذا أردنا أن يتوفر للعالم أكبر قدر ممكن من الحرية ، فمن الضرورى أن يخضع هذا العالم لقيود تحول دون الهجمات العنيفة على حرية الآخرين .

وهذا معترف به فى الشئون الداخلية للدول : فجريمة القتل يعاقب عليها القانون فى كل مكان . ولو الغيت عقوبة القتل فستقل بذلك حرية الجميع باستثناء القتلة ، بل ستكون حرية القتلة نفسها فى غالب الأحيان حرية قصيرة الأجل لان أمرهم سرعان ما سينتهى بالقتل . ولكن على الرغم من أن الجميع باستثناء حفنة قليلة من الفوضويين يعترفون بهذا فيما يختص بعلاقة الفرد بالدولة القومية ، فان هناك احجاما شديدا عن الاعتراف به فيما يتصل بعلاقات الدول القومية بالعالم ككل .

والمحاولات التى بذلت حتى وقتنا هذا لسن مجموعة من القوانين الدولية جديرة بالاعجاب حقا . والمدى الذى استطاع القانون الدولى ان يصل اليه فى اكتساب الاحترام العام مفيد حقا . ولكن المسألة ظلت اختيارية ، لكل دولة قومية أن تختار بين احترام أحكام القانون الدولى وبين عدم الاحتفال بها . فالدول العظمى تتمتع فى الوقت الحاضر بامتياز قتل أعضاء الدول الأخرى كلما عن لها ذلك ، ولكنها تغلف هذه الحرية وراء ستار الحق فى البطولة والاستشهاد فى سبيل الدفاع عما هو رشد وصواب والوطنيون يدأبون على التحدث عن الاستشهاد فى سبيل وطنهم ، ولا يتحدثون مطلقا عن اقتراف جرائم القتل فى سبيل وطنهم .

لقد اقترفت معظم الدول فى وقت أو آخر أعمالا لن تجد الحكومة العالمية مناصا من وصمها بالاجرام ، ولكن بعض المذنبين العتاة فى هذا المضمار قد حظى باعجاب وتقدير فريق من الناس يعتبرون أنفسهم

احرارا . واكبر مثل على ذلك فى التاريخ جدير بالذكر هو الاعجاب الذى يحمله أناس كـ « بيرون » و « هابنى » نحو نابليون .

وقبل ان تصبح الحكومة العالمية ممكنة ، سيكون من الضرورى حمل الناس على ادراك استحالة دوام الفوضى الدولية الراهنة ، فى وقت توجد فيه الاسلحة الحديثة للدمار الشامل .

ضبط النفس

والاعتراض القوى الآخر على قيام حكومة عالمية ، وخاصة من جانب الدول الشيوعية ، يتلخص فى انها قد تجمد الأوضاع الراهنة . وطالما أن الصراع بين الشيوعيين وأعدائهم سيبقى على ما هو عليه فى ضراوة وحدة فى الوقت الحاضر ، فسيصعب الوصول الى اتفاق على اقامة أية تنظيمات دولية يبدو من المحتمل انها ستعوق انتقال الدول الأفراد من معسكر الى آخر .

سيكون من الممكن بطبيعة الحال أن تخول أحكام القانون الدولى لكل دولة الحرية فى تنظيم اقتصادياتها الخاصة بالأسلوب الذى يروق لها ، ولكنه قد يثبت أنه من الصعوبة بمكان ضمان احترام هذه الحرية احتراما حقيقيا . واذا ارادت الحكومة العالمية أن تنجح فى ارساء قواعدها ، فلابد من زيادة التسامح بين أنواع الحكم القومى المختلفة بدرجة اكبر بكثير مما هو عليه فى الوقت الحاضر . كما سيكون من الضرورى التخلى عن جانب من اللذات الناجمة عن تأكيد الذات القومية .

قد تستمر كل دولة فى التغنى بأنها أرفع شأنا فى كل أمر هام من سائر الدول الأخرى كما هو الحال الآن . ولكن عندما تجتمع الدول من أجل التفاوض يجب على المتفاوضين أن يضبطوا انفسهم ويمتنعوا عن التعبير العام عن شعورهم بالتفوق بحيث لا ينبو عن الذوق واللياقة . ولن يكون ضبط النفس هذا سهلا أو يسيرا اذا استمرت المشاعر القومية على ما هى عليه من حدة فى الوقت الحاضر .

وهناك نقطة جدل أخرى كثيرا ما تستعمل فى مناهضة انشاء حكومة عالمية فيقال : انه سينجم عن اقامة حكومة عالمية ظهور خطر جديد يتمثل فى الاستبداد العسكرى ــ وهو اعتقاد شائع ــ فما الذى سيمنع القوة الدولية المسلحة من القيام بتمرد عسكرى وتعيين قائدها امبراطورا على العالم ؟

ونفس هذه المشكلة بالضبط تواجه كل دولة قومية فى الوقت الحاضر . ولكن السلطات المدنية فى الأمم التى تحتل مركز الصدارة فى العالم قد نجحت نجاحا كبيرا فى السيطرة على الاجهزة العسكرية .

عندما ازمع لينكولن تعيين قائد عام على القوات الشـــمالية فى الحرب الأهلية الامريكية حذره البعض من أن مرشحه سيسعى لاقامة ديكتاتورية . فكتب لينكولن اليه معبرا عن هذه المخاوف وأضاف :

« ان السبيل لاقامة ديكتاتورية هو تحقيق الانتصارات . سأتطلع اليك من أجل تحقيق الانتصارات وسأجازف بالديكتاتورية .

واثبتت الحوادث حكمة هذا القرار .

وفى الصراع الذى نشب فى انجلترا حول قانون الاصـلاح (١) ، كان ولنجتون مندفعا بعواطفه فى معارضة هذا الاصـلاح . ولكنه على الرغم من شهرته العريضة لم يخطر على باله قط أن يقـود الجيش ضد البرلمان .

وفى روسيا عندما قلب ستالين ظهر المجن لمجموعة من الجنرالات لم يجد صعوبة فى اعدامهم والاجهاز عليهم .

ليس هـذا اذن سبب يدعو الى افتراض ان السيطرة على القوة العســكرية فى ظل حكومة عالمية ســتكون أكثر صعوبة منها فى ظل الحكومات القومية . وهذا خطر لا بد للحكومة المـدنية أن تنتبه اليه . ولكن ليس هناك سبب يدعو للاعتقـاد بأن الطرق التى ستستحدث لمحاربة هذا الخطر ســيكتب لها نجاح أقل من النجاح الذى ثبت ان الدول الكبرى فى يومنا الحاضر قد حققته .

الخوف كمصدر للتماسك الاجتماعى

هناك عائق نفسى خطير بعض الشىء يعترض سبيل انشاء حكومة عالمية ، وفحواه أنه لن يكون هناك عدو خارجى يبعث على الخوف .

فالتماســك الاجتماعى ، فى الحـدود التى يكون فيها غريزيا ، يشجعه أساسا الاحساس بالخطر المشترك أو العداء المشترك . وهذا أكثر ما يكون وضوحا عندما يعهد الى شخص راشـد برعاية مجموعة من الاطفال الأشقياء الذين لا ينصاعون لأمر . وطالما ان كل شىء يسوده الهدوء ، فمن الصعب حمل الاطفـال على الطاعة . ولكن اذا حـدث ما يخيف كعاصفة راعدة ، أو هجوم كلب مفترس ، فسيبحث الاطفال لتوهم عن شخص كبير يحتمون به ويطيعون أوامره بحذافيرها .

---

(١) قانون الاصلاح صدر فى انجلترا عام ١٨٣٢ ، وبصدوره قطعت انجلترا شوطا كبيرا على طريق الديمقراطية .

(المترجم)

وينطبق نفس هذا المبدأ على الكبار ، وان لم يكن الأمر فى حالتهم بمثل هذا الوضوح ، فالوطنية تكون أشد تأججا بكثير فى وقت الحرب منها فى أى وقت آخر ، كما أنه يوجد فى ذلك الوقت استعداد واضح للانصياع حتى للمراسيم الحكومية الكريهة ، هذه الطاعة لا تقوم لها قائمة اذا كان السلام مستقرا .

ولن يكون فى امكان الحكومة العالمية أن تستثير مثل هذا الدافع « للولاء » ، نظرا لأنها لن تجابه عداوة انسانية من الخارج (١) . واعتقد أنه سيكون من الضرورى ، كجزء هام من نظام التعليم تذكير الناس بالاخطار التى ستستمر فى تهديدهم مثل الفقر وسوء التغذية والأوبئة، كما أنه سيكون من الضرورى تنبيههم كذلك الى أن فشلهم فى الولاء للحكومة العالمية معناه أن الحرب العلمية قد تصبح محتملة مرة أخرى.

التعليم

على الرغم من أن كراهية الدول الخارجية تساعد على التماسك الاجتماعى فى يسر لعله يفوق التماسك الاجتماعى الناجم عن أى عامل آخر ، الا أن الافتراض بأن شيئا أكثر ايجابية وأكثر جدوى لا يمكن أن يحل محل هذه الكراهية ضرب من التشاؤم لا موجب له . فهذه المسألة بأسرها تعتمد على التعليم أكثر من أى شيء آخر .

لقد وفرت كل التطورات الفنية منذ الثورة الصناعية أسباب الزيادة فى حجم الدول . وبما أن كوكبنا محدود الحجم فهذه الاسباب الفنية تقودنا بقوة شديدة نحو اقامة حكومة موحدة للعالم بأسره .

كان حجم الدول فيما مضى يحدده أساسا التوازن بين قوتين متعارضتين . فمن ناحية نرى حب القوة والسلطان من جانب الحكومة ، ومن ناحية أخرى نجد حب الاستقلال من جانب المحكومين . والنقطة التى تجد فيها هاتان القوتان نفسيهما فى حالة توازن فى أية مرحلة من التطور تعتمد أساسا على التكنيك (أو أسلوب الانتاج) السائد .

والزيادة فى سهولة النقل والتحرك ، وفى أسعار الاسلحة تجعل الوحدات الحكومية تميل لان تكون أكبر حجما . وعندما تكون الأسلحة رخيصة والانتقال بطيئا ، تميل الوحدة الحكومية المتسعة الرقعة الى عدم الاستقرار حينما تواجه ثورة داخلية . ولهذا السبب فهناك بوجه

---

(١) عالج برتراند راسل العلاقة بين الخوف والتماسك الاجتماعى باستفاضة فى كتابه « السلطة والفرد » .

(المترجم)

عام اتجاه فى الدول الى النمو فى الحجم كلما درجت على سلم المدنية ، وان تصغر كلما كانت المدنية فى حالة تدهور .

واختراع البـــارود لم يزد فى حجم الدول فحسب ، ولكنه زاد أيضا من قوة الحكومة المركزية ، فى كل دولة . ولكنه على كل حال لم يخلق الظروف الفنية التى ينبغى توافرها لاقامة حكومة عالمية ، فهذه الظروف لم تنشأ الا فى وقتنا الحاضر .

تجـــديدات

كانت اول خطوة هامة هى ابراق الانباء وسرعة نقلها . وقد لعبت السكة الحديد دورا هاما للغاية . واظن أن المرء يستطيع أن يفترض انه لو كان نابليون يمتلك سكة حديد لتمكن من هزم روسيا عام ١٨١٢ .

ولكن التغييرات التى حدثت فى القرن الذى نعيش فيه أهم بكثير من السكة الحديد والتلغراف : اعنى بهذا الانتصار على الفضاء (١) : وأهم من ذلك اختراع الأسلحة النووية . ورغم أن هذا التقدم الفنى قد جعل الفوضى الدولية الراهنة أخطر بكثير جدا عما كانت عليه فى أى وقت مضى ، الا انه قد جعل ايضا فى الامكان من الناحية الفنية اقامة حكومه عالمية يمكنها ان تباشر سلطانها فى كل مكان وأن تجعل المقاومة المسلحة ضدها أمرا مستحيلا بالفعل .

ويرجع هذا الموقف الجـــديد أساسا الى ثلاثة إبتكارات علمية : أولها وأهمها جميعا القدرة الهائلة على التدمير التى للاسلحة النـــووية الحديثة . وثانيها السرعة الفائقة التى سنستطيع بهـــا هــــذه الاسلحة الوصول الى أهدافها . أما التجديد الثالث فهـو تكاليفها الباهظة . كل هـــذه التجديدات تزيد من امكانية التضخم في حجم الدولة المستقرة . وحتى يومنا الحاضر ، فان امكانية التمدد فى الحجم قاصرة على سطـــح الارض ولكنها قد تمتد الى القمر والكواكب بأسرع مما نتصور .

هذه امكانيات ، ولكنها لن تتحقق الا اذا لم يدمر الجنس البشرى نفسه باستمساكه بقوالب سياسية جعلتهـــا الاسلحة الحديثة عتيقة بالية . واذا قدر لحكومة عالمية أن تعمل فى سهولة ويسر فلابد من تحقيق شروط اقتصادية معينة ومن بين هـــذه الشروط ما بدأ يحظى باعتراف شائع وهو رفع مستوى المعيشة فى الـــدول المختلفة في الوقت الحاضر حتى تصل الى المستوى الرغد السائد بـــين معظم السكان فى الغرب . وحتى يجىء اليوم الذى يتحقق فيه قدر معين من المساواة الاقتصادية فى مختلف أنحاء العالم . فستظل الامم الفقيرة تحمل الشعور بالحسد نحو الامم الغنية ، وستخشى الامم الغنية أن ترتكب الامم الفقيرة أفعالا تتسم بطابع العنف .

---

(١) الفضاء هنا ترجمة لكلمة Spase وليس لكلمة air (المترجم)

ولكن ليس هذا بأصعب اجراء اقتصادى قد تحتم الضرورة اتخاذه. فهناك مواد خام مختلفة لازمة للصناعة . والبترول فى الوقت الحاضر من أهم هذه المواد . ومن المحتمل أن يصبح اليورانيوم ضروريا فى الاستخدام الصناعى للطاقة النووية ، رغم أن الحاجة اليه لاغراض الحرب ستنعدم .

وليس من العدل أن تكون مثل هذه المواد الخام الضرورية ملكا خاصا لاحد . وأعتقد انه يجب أن نعتبرها من ضمن الملكية الخاصة غير المرغوب فيها لا الملكية الخاصة التى يمارسها أفراد أو شركات فحسب ، بل تلك التى تباشرها أيضا دول منفصلة . وينبغى أن تصبح المواد الخام ، التى يستحيل أن تقوم الصناعة بدونها ، ملكا لسلطة عالمية تمنحها للدول المنفصلة حسب مبدأ العدالة ، والقدرة على استعمالها . والامم التى تفتقر الى هذه القدرة ينبغى أن تساعد على اكتسابها .

الحرية

فى عالم مستقر كالذى نتصور قيامه ، من الممكن بشتى الطرق تحقيق قدر أكبر بكثير من الحريه الموجودة حاليا . وستوضع على أية حال بعض القيود الجديدة على الحرية حيث انه سيكون من الضرورى غرس الولاء للحكومة العالمية ، وكبح جماح الاثارة والتحريض على الحرب الذى تقوم به أمم بمفردها أو مجموعات من الامم .

وفيما عدا الخضوع لهذا القيد ، ينبغى أن تتوفر حرية الصحافة ، وحرية الكلام ، وحرية الاسفار ، كما ينبغى اجراء تغيير جذرى عميق فى نظام التعليم .

وينبغى الاقلاع عن تلقين النشء الافراط والمبالغة فى تأكيد حسنات أوطانهم دون سائر الاوطان . والشعور بالفخار بمواطنيهم الذين أظهروا أكبر مهارة فى قتل الاجانب ، وينبغى الاقلاع كذلك عن حكمة مستر بودسناب التى تقول : « يؤسفنى أن أذكر أن الامم الاجنبية تنتهج لنفسها منهاجا فى الحياة يغاير منهجنا ودونه » .

وينبغى تعليم التاريخ من وجهة نظر دولية مع الاهتمام الضئيل بالحروب ، والاهتمام الشديد بالانتصارات السلمية سواء فى مجالات المعرفة أو الفنون أو الاستكشاف أو المغامرة . ولا ينبغى للحكومة العالمية السماح للسلطات التعليمية فى أية دولة بالهاب الشعور بالتفوق على دول العالم الاخرى ، أو التحريض على العصيان المسلح ضد الحكومة العالمية .

وباستثناء هذه القيود ، ينبغى أن تتوفر فى نظم التعليم حرية أكبر بكثير من الحرية القائمة فى الوقت الراهن ، وأن يتوفر التسامح مع الآراء غير المستحبة وغير الشائعة بين المدرسين ما دامت ليست من النوع الذى يسبب خطر الحرب ، كما ينبغى أن ينصب كل الاهتمام فى سائر تعاليم التاريخ والمواد الاجتماعية « بالانسان » وليس بالامم المفردة أو مجموعات الامم .

ان كلا من الافراد والجماعات يحركها نوعان متعارضان من الحوافز أحدهما هو التعاون ، والاخر هو التنافس • وكل تقـدم فى الوسائل العلمية يزيد من مجال التعاون المرغوب فيه كمـا يقلل من المنـافسة المرغوب فيها • وأنا لا أعنى أن التنافس ينبغى أن يختفى كحافز ، ولكن ما أعنيه بالتأكيد ألا يتخذ التنافس صورا كالحاق الاذى بالغير على نطاق واسع ، وبخاصة فى صورة الحرب بالطبع •

ينبغى أن يكون أحد الاهداف التى يسعى التعليم الى تحقيقها هـو توعية النشىء بامكانيات التعاون العالمى ، وخلق عادة التفكير فى صالح الانسانية ككل • وينبغى أن يكون هناك ، كنتيجة لمثل هذا التعليم ، نمو عام فى مشاعر الصداقة والود ، مع الاقلال من دعاية الكراهية التى تكون حتى الآن جانبا من التعليم الذى تقدمه الدولة فى معظم الاقطار •

المغـامرة

من الناس من يشعر بأن العـالم الذى يخلو من الحرب عالم يبعث على السأم والضجر • ويجب أن نعترف بأن كثيرا من الناس فى العالم ، كما هو قائم الآن ، يعيشون حياة محدودة الأبعاد ، خالية من عنـاصر التسلية ، وأن بعضهم يشعر بأنه يستطيع على أقل تقدير أن ينجز شـيئا على جانب من الأهمية ، ويتخلص من السأم والملل • فعندما ينقلون أثنـاء الحرب الى بلاد نائية تتاح لهم الفرصة لمشاهدة أساليب فى الحياة تغاير تلك التى ألفوها فى بلادهم • وفى اعتقادى أنه يجب توفير المغامرة ، حتى المغامرة التى تنطوى على الأخطار ، فى حياة من يرغبون فيها من الشباب •

ستتطلب مثل هـذه المغامرة ، التى تقوم فى العادة على التعاون ، النظام والتعاون والاحساس بالمسئولية ، كما ستتطلب الطاعة أيضـا • وجميعها أمور لايشتد عود الانسان كما ينبغى بدونها ، وهى تكون فى الوقت الحاضر أساس حب الانسان للحرب وينبغى توفير فرصة الالتحاق بالحملات العلمية التى تستهدف استكشاف منطقة القطب الشـمالى ، ومنطقة القطب الجنوبى ، وجبال الهيمالايا ، وسلسلة جبـال الأنديز فى أمريكا الجنوبية ، كما ينبغى توفير أسباب السفر الى الفضاء الذى أصبح وشيك التحقق لمن يتوق الى شىء على درجة أكبر من المخاطرة والمغامرة •

وعندما ينزاح عبء التسلح سيكون من الممكن توفير كل أسـباب المغامرة التى يرغب فيها النشىء المتململ البرم على نفقة الخزانة العـامة مادامت لاتجلب الشقاء والمصائب فى أعقابها ، ولا تنطوى على المجـازفة بنهاية الانسان كما هو الحال الآن •

آمـال

فاذا قدر لخطر الحرب أن يزول ، فستجتاز الانسانية فترة انتقال ، نجد فى أثنائها أن أفكار الناس وعواطفهم لايزال يسيطر عليها المـاضى الأهوج المضطرب • وفى خلال فترة الانتقال هـذه ، لايمكن تحقيق كل ماتصبو اليه من انهاء خطر الحرب بصورة نهائية ، وسيستمر شـعور التنافس المفرط ، ولن تكون الأجيال القـديمة ــ على أقـل تقدير ــ

لتلائم أفكارها مع العالم الجديد الذى سيكون فى طريقه الى الخلق والتكوين

وبينما يظل العمل من أجل اعادة تشكيل عقليـــة الناس على قدم وساق ، ستكون هناك حاجة الى مجهود من الجائز أن ينضمن بعض القيود على الحرية حتى يتم اجراء التغييرات والملاءمه اللازمة • ولست أرى على أية حال استحالة تحقيق هذه التغييرات فتسعة أعشار الطبيعة البشرية على أقل تقدير تعتمد على التربية ، والجزء العاشر منها فقط يعتمد على الوراثة• والجانب الذى يرجع الى التربية يمكن لنظام التعليم أن ينكفل بأمره • ومن المحتمل أن يثبت فى الوقت المناسب أن الجزء الوراثى نفسه سيخضع لأثر العلم فيه •

دعنا نفترض أنه قد أمكننا اجتياز فترة الانتقال بنجاح ، ولنسأل أنفسنا أى عالم هذا الذى نرجو اقامته كنتيجة لذلك • وما مصير الفنون والآداب والعلوم فى مثل هذا العالم ؟

أرى أنه يمكننا أن نأمل فى أن التحرر من عبء الخوف ، الخوف الاقتصادى الخاص ، والخوف العام من الحرب ، سيجعل روح الانسان تحلق فوق مشارف علوية لم يقدر للانسان أن يحلم بها حتى الآن •

لقد كان مقدرا على الانسان حتى وقتنـــا الراهن أن يخيب رجاؤه وأمله وخياله بسبب ضيق امكانياته • وقد ظل يرنو الى الخلاص من الخوف واضعا رجاءه فى حياة أخرى فى السماء • أو كما يقول المتدين الزنجى : «عندما أقفل راجعا الى بيتى سأخبر الرب بكل متاعبى» •

ولكن ليس هناك سبب يدعو لانتظار السماء • وليس هناك سبب يجعل الحياة على الأرض لاتزخر بالسعادة ، كما أنه ليس هناك سبب يدعو خيال الانسان لأن يلتجىء الى الأساطير • فمن الممكن أن تكون حيـــاة الانسان ، فى العالم الذى يستطيع خلقه اذا شاء ، حياة خلاقة منطلقة فى اطار وجودنا الأرضى •

لقد نمت المعارف فى العصر الحديث بسرعة فائقة لدرجة أن اكتسابها أصبح قاصرا على قلة ضئيلة من الخبراء ، يملك القليل منهم الطـــاقة أو القدرة على مزجها بالاحساس الشاعرى والبصـــيرة الكونية • فالنظام البطليموسى فى الفلك وجد أحسن تعبير شـــعرى له فى دانتى ، وكان مقدرا عليه من أجل ذلك أن ينتظر نحو ألف وخمسمائة عام •

التحرير

اننا نقاسى من العلم غير المهضوم • ولكن فى عالم يتيح تعليمـــا يتضمن درجة من المغامرة أكبر مما هى عليه الآن ، سيتمكن الانسان من أن يتمثل أكداس العلوم غير المهضومة • وستتسع رحاب أشعارنا وفنوننـــا حتى تبلغ مشارف عوالم جديدة ، تجد لهـــا تصويرا فى ملاحم جديدة • وقد يكون من المتوقع أن يقود تحرير روح الانسان الى بهاء جديد ، وجمال جديد ، وسناء جديد كان مستحيلا فى عالم الأمس الحبيس الضارى •

وإذا أمكننا الانتصار على متاعبنا الحاضرة فسيستطيع الانسان أن يتطلع الى مستقبل يمتد الى مدى يتضاءل معه ماضيه ، مستقبل يستوحي رؤيا جديدةعريضة ، وأملا دائما تغذية دوما انتصارات الانسان المستمرة. لقد بدأ الانسان بداية تليق بطفل ـ لأن الانسان آخر الانواع ، لا يزال في المهد من الناحية البيولوجية . وليس هناك حد لمـــا يمكنه تحقيقه في المستقبل .

واني لأرى عندما أسرح بخيالي عالما من المجد والفرح ، عالما تنطلق فيه العقول . ولا تكتنف فيه الظلمات أمل الانسان ، عالما يبطل فيه دمغ النبل ووصمه بانه خيانة لهذا الغرض الخسيس أو ذاك الهدف الدنيء . كل هذا يمكن أن يحدث اذا ســمحنا له أن يحدث والأمر موكول لجيلنا لكي يختار بين هذه الرؤيا وبين فناء تسطره غباوتنا .

الفصل الرابع

عظماء في حياة برتراند رسل

(١) هـ . ج . ويلز
H. G. Wells

قابلت هـ . ج . ويلز لاول مرة فى عام ١٩٠٢ فى جمعية صغيرة للمناقشة انشأها سيدنى ويب وأطلق عليها اسم « القواسم المشتركة » أملا فى أن نتعاون للعمل بكفاءة فيما بيننا . وكان عددنا حوالى اثنى عشر عضوا .

لم أكن قد سمعت عن هـ . ج . ويلز مطلقا حتى ذكره ويب على أنه رجل كان قد دعاه لكى يصبح « قاسما مشتركا » واخبرنى ويب أن ويلز شاب كان يكتب فى ذلك الوقت قصصا على غرار جول فيرن . ولكنه كان يأمل عندما يذيع اسمه ويجمع ثروة عن طريق قصصه هذه أن يقف حياته على عمل أكثر جدية . وسرعان ماوجدت أننى كنت مختلفا أشد الاختلاف مع معظم « العوامل المشتركة » بدرجة لايمكننى معها الاستفادة من المناقشات أو اضافة أى شىء مفيد اليهـا . وكان سائر الاعضاء ماعدا ويلز وأنا استعماريين كما كانوا يتطلعون دون أن يصيبهم كثير من الجزع الى حرب مع ألمانيا . واستهوانى ويلز بسبب كراهيتنا المشتركة لوجهة النظر هذه . وكان ويلز يدين بالمبـادىء الاشتراكية ويعتبر حينذاك ــ وان كان قد تغير فيما بعد ــ أن الحروب حماقة وجنون . وتأزمت الامور عندما دافع السير ادوارد جـراى الذى كان فى المعارضة ــ عما أصاب سياسة الدول الصديقة آنذاك مع فرنسا وروسيا ، تلك السياسة التى تبنتها حكومة المحافظين بعـد قرابة عامين والتى دعمها ومكن لها السير ادوارد جراى عندما أصبح وزيرا للخارجية . وتحدثت منددا فى عنف ضد هذه السياسـة التى شـعرت انها تفضى مباشرة الى حرب عالية ولكن الجميع باستثناء ويلز اختلفوا معى فى الرأى .

وكانت نتيجة التعاطف السياسى بيننا اننى دعوت ويلز ومسـز ويلز ليزورانى فى باجلى وود بالقرب من اكسفورد حيث كنت أقطن فى ذلك الوقت . ولم تكن الزيارة ناجحة تماما .

اتهم ويلز زوجته فى وجودنا بأنها تتكلم بلهجة العوام من أهـــل لندن وهو اتهام (فيما يدا لى) يمكن أن يوجه اليه عن جدارة واستحقاق أكبر . وهناك مسألة أجل شأنا نشأت عن كتاب كان قد كتبه مؤخرا بعنوان « فى أيام المذنب » (١) ويروى هذا الكتاب أن الارض تخترق ذيل مذنب يحتوى على غاز من شأنه أن يجعل كل انسان عاقلا . ويوضـــح الكتاب انتصار العقل والاتزان بطريقتين . ان حربا مستعرة ــ كانت تدور رحاها بين انجلترا والمانيا ــ تتوقف بالاتفاق المتبـادل ، وان كل انسان ينغمس ويستغرق فى حب منطلق من كل القيـــود . وشنت الصحافة هجوما على ويلز لا لدفاعه عن السلام وانهاء الحرب ولـكن لدفاعه عن الحب الطليق . فرد بنوع من الحرارة والحماسة أنه لم يدافع عن الحب المنطلق ولكنه مجرد أنه تنبأ بنتائج ممكنة الحدوث لوجود عناصر جديدة داخلة فى تركيب الجـو دون أن يذكر اذا كان يستحسن هذه النتائج أم يستهجنها ، وبدا لى هذا تلاعبا واحتيالا . وسـألته : لماذا دافعت عن الحب بلا قيود بادىء الامر ثم تراجعت بعد ذلك ؟ فأجاب بقوله أنه لم يكن قد اقتصـد بعد من حقوق التـأليف والنشر ما يكفيه من مال حتى يمكنه أن يعيش على ريعها وأنه لا يعتزم أن يجهر بدفاعه عن الحب المنطلق قبل أن يتم له ذلك . . وكنت فى تلك الايام متشددا ، من غير داع فأساءت هذه الاجابة الى .

وبعد ذلك لم ألتق به الا لماما حتى انتهت الحرب العالمية الاولى .

وعلى الرغم من موقفه السابق من الحرب مع المانيا فقد أصبح فى عام ١٩١٤ مؤيدا للحرب مناديا بالقتال بشكل مفرط . واستحدث عبـــارة « شن حرب لانهاء الحرب » . وقال انه « متحمس لهذه الحرب ضد الروح العسكرية البروسية » . وأعلن فى أيام الحرب الاولى المبكرة أن الجهاز العســكرى البروسى برمته قد أصابه الشلل أمام حصون ليبج التى سقطت متهاوية بعد يوم أو يومين فيما بعد . ورغم أن سـيدنى ويب كان متفقا مع رأى ويلز فى الحرب الا أن علاقته الودية به كانت قد توقفت بسبب عدم رضائه عنه من الناحية الاخـــلاقية من جانب ، وبسبب قيام ويلز بحملة شائكة ضده حتى ينتزع منه زعامة الجمعية الفابية من جانب آخر . وقد عبر ويلز عن عدائه لعائلة ويب فى قصص طويلة عديدة . ولم تهدأ ثائرة هذا العداء أبدا .

وبعد انتهاء الحرب الاولى أصبحت علاقاتى بويلز للمرة الثانيـــة أكثر ودا وتوطدا . وكنت أحمل الاعجاب لكتابه « مجمل التاريخ (٢) » وخاصة الاجزاء الاولى منه . وألفيت نفسى متفقا مع آرائه فى طائفة كبيرة من الموضوعات . لقد كان يحمل بين جنبيه طاقة وقدرة على تنظيم كميات

---

(١) In the days of the Comet

(٢) Outline of History

ضخمة من المواد . كانت عيناه تلمعان ببريق خاطف ، وكان المتحدث معه يحس خلال النقاش معه أنه كان يهتم بفحوى النقاش اهتماما موضوعيا أكثر من اهتمامه الشخصى بمن يجاذبه أطراف الحديث . وكانت عادتى أن أزوره فى عطلات نهاية الاسبوع فى منزله فى اسكن حيث كان يرافق ضيوفه فى عصر أيام الاحاد لزيارة جارته الليدى واروبك .

وأهمية ويلز ناشئة من الكم فى الانتاج أكثر من الكيف . ولكن يجب على الانسان أن يعترف بأنه كان متفوقا فى بعض انواع انتاجه . فقد كان يجيد للغاية تصور سلوك الجماهير الجماعى فى ظروف غير معتادة كما هو الحال مثلا فى « حرب العوالم (١) » وتصف بعض قصصه الطويلة بطريقة مقنعة أبطالا لا يختلفون عنه شخصيا . وهو من الناحية السياسية واحد من الذين جعلوا الاشتراكية مذهبا له وزنه واحترامه فى انجلترا وكان له تأثير كبير للغاية على الجيل الذى تلاه لا من الناحية السياسية فحسب بل فى مسائل الاخلاقيات الشخصية . وكانت معلوماته مترامية الاطراف وان لم تكن تتسم بالعمق فى أى من المواضع ، وكانت له على كل حال بعض الاخطاء التى انتقصت نوعا ما من قدره كحكيم فقد كان يجد أن أعراض الناس عنه أمر لا يطاق وكان يتنازل عن اشياء امام الصيحات الشعبية المتعالية مما كان ينتقص من الانسجام والتماسك فى تعاليمه . وحينما أصابه الانزعاج والقلق بسبب اتهامات الانحلال والخيانة الجنسية التى وجهت اليه شاء أن يكتب قصصا من الدرجة الثانية بعض الشىء يهدف من ورائها الى أن ينفى مثل هذه الاتهامات عن نفسه « كروح أسقف » (٢) أو قصة الزوج والزوجة اللذين يشرعان فى العراك والتشاحن ويقضيان الشتاء فى لابرادور حتى يضعا حدا لهذا التشاجر ثم يصفو الجو بينهما بسبب معركة يخوضانها سويا ضد هجمة دب ، وفى آخر مرة رأيته فيها وكانت قبل وفاته بوقت قصير تحدث فى جدية تامة عن الاضرار الناشئة عن الانقسامات فى جبهة اليسار ، وفهمت ــ رغم أنه لم يقل هذا صراحة ــ انه يعتقد أنه يجب على الاشتراكيين أن يزيدوا من تعاونهم مع الشيوعيين أكثر مما كانوا يفعلون . ولم يكن هذا رأيه وهو فى قمة قوته وذروة نشاطه عندما اعتاد أن يسخر من لحية ماركس ويحث الناس على عدم تبنى أصول الماركسية الجديدة .

وتتلخص أهمية ويلز أساسا فى أنه محرر للفكر والخيال . فقد كان قادرا على بناء صور لمجتمعات ممكنة بطريقة وضاءة هادية للغاية أحيانا . وقصته « بلد العميان (٣) » أن هى الا قصة الكهف الرمزية عند

---

(١) The War of the worlds

(٢) The Soul of a Bishop.

(٣) The country of the blind

افلاطون فى لغة عصرية وقالب متشائم بعض الشىء . وكان يقصد من « مدنه المثلى » ـ رغم انها ليست راسخة فى حد ذاتها ـ اثارة سلسلة من الافكار قد يثبت جدواها . وهو عقلى دائمـا ويتجنب صـور الخزعبلات المختلفة التى يتعرض عقل الانسان الحديث للانزلاق فيها . وايمانه بالمنهج العلمى ايمان صحيح ويبعث على القوة . ورغم أن تفاؤله يصعب التمسك به نظرا لحالة العالم الراهنة الا أنه من المحتمـل جدا أن يقود الى نتائج طيبة اكثر مما يقودنا اليها التشاؤم المتراخى الكسول بعض الشىء الذى أصبح شائعا فى كل مكان أكثر مما ينبغى . وعلى الرغم من بعض التحفظات فانى أعتقد أنه يمكن لنا اعتبار ويلز كقوة هامة تدفع الى التفكير العاقل البناء فيما يتعلق بالانظمة الاجتماعية والعلاقات الشخصية على حد سواء . وأملى أن يجىء بعده من يخلفونه ولو أننى لا أعرف فى الوقت الراهن من سيكونون له خلفاء .

(٢) د • هـ • لورنس D. H. Lawrence

كانت معرفتى بلورنس قصيرة ومضطربة ، دامت فى مجموعها مايقرب من عام . وقد جمعتنا معا الليدى « اتولين مورل » التى كانت تكن لكلينا الاعجاب والتى جعلتنا نعتقد انه ينبغى علينا (لورنس وأنا) أن نتبادل الاعجاب . كانت الدعوة الى السلام قد ولدت فى نفسى شعورا بالثورة المريرة ، ووجدت فى لورنس ثورة عارمة كالتى كانت تعتمل فى صدرى ، مما جعلنا نظن بادىء الأمر أن هناك وشائج كثيرة من الوفاق الفكرى تربط الواحد منا بالآخر . وقد تبينا فيما بعد ، أن شقة الخلاف التى تفصل بيننا أبعد من خلاف أى منا مع امبراطور ألمانيا .

وكان يتنازع وجدان لورنس حينذاك موقفان من الحرب : فمن ناحية ، لم يكن فى وسعه أن يكون وطنيا بكل جوارحه لان زوجته كانت ألمانية . ومن ناحية اخرى بلغت كراهيته للانسانية حدا جعله يميل الى التفكير أن كلا الجانبين لابد أن يكون على صواب فى الكراهية التى يحملها كل منهما للاخر . وعندما تكشف لى هذان الموقفان ، ايقنت أنه لا يمكن لى أن أعطف على أى موقف منهما . ولكن ادراكنا لأوجه الخلاف بيننا كان بالتدريج على أية حال ، واستمرت علاقتنا فى بادىء الامر سعيدة مرحة كأجراس العرس . ودعوته لزيارتى فى كامبريدج حيث قمت بتقديمه الى كنيس Keynes والى عدد اخر من الناس . ولكنه قابلهم جميعا بروح الكراهية ، ووصفهم جميعا بانهم « موتى ، موتى ، موتى » . وظللت فترة من الزمن اعتقد أنه من الجائز أن يكون على صواب ، فقد أحببت عواطف لورنس المتقدة ، كما أحببت فيه الايمان بحاجة العالم الى شىء جوهرى للغاية ، لاصلاح شأنه . وكنت متفقا معه فى التفكير فى استحالة فصل السياسة عن النفسية الفردية ، وأشعر أنه رجل تتسم عبقريته الأكيدة بالخيال . وفى البدء عندما كنت أميل الى الاختلاف معه ، كنت أظن أن بصيرته النفاذة فى ادراك الطبيعة البشرية تفوق بصيرتى عمقا . ولم يصل الحال بى أن أشعر بقوته الايجابية على الشر الا بالتدريج ، وانتهى الأمر بأنه أصبح يشعر نحوى بمثل الذى كنت أشعر به نحوه .

كنت فى ذلك الوقت منصرفا الى تحضير سلسلة من المحاضرات التى نشرت فيما بعد بعنوان « مبادىء اعادة البناء الاجتماعى (١) » وكان هو أيضا يرغب فى القاء المحاضرات ، وبدا لى حينذاك انه من الممكن أن ينشأ بيننا نوع من التعاون الخفيف . وتبادلنا عددا من الرسائل اضاع هو ما ارسلته اليه ، ولكن رسائله رأت طريقها الى النشر .

---

(١) Principles of Social Reconstruction

ومن الممكن لمن يتتبع رسائله أن يدرك تدريجا شعورا بخلافاتنا الجوهرية، فقد كنت شديد الايمان بالديموقراطية ، في حين أنه استولد كل الفلسفة الفاشية قبل أن يفكر رجال السياسة فيها • وكتب يقول : انني لا أؤمن بالسيطرة الديموقراطية • وفي رأيي أن العامل يصلح لانتخـــاب حكام ورؤساء لخدمة احتياجاته المباشرة فقط • لا بد أن تعيدوا النظر كلية في نظام الناخبين بحيث يحـــق للعامل انتـــخاب رؤساء للامور التي تعنيه مباشرة ، وبحيث يتم انتخاب السلطة العليا من الطبقات الاخرى الناهضة• ويجب أن يتبلور النظام الاجتماعي في آخر الأمر في رأس واحد حقا كما هو الحال في كل كائن حي ــ لا جمهوريات سخيفة يرأسها رؤساء جمهوريات سخفاء بل ملك منتخب ، شيء أشبه ما يكون بيوليوس قيصر » . وهو بطبيعة الحال يفترض في تصوراته أنه سيصبح يوليوس قيصر المنتظر عند أرساء أسس النظام الديكتاتوري . وكان هذا جانبا من طبيعـــة تفكيره الحالم الذي لم يســـمح له بالنزول الى الواقـــع أبدا • وكان ينفجر في خطب هجومية طويلة ، متحمسة يعلن فيها ضرورة اذاعـــة **الحقيقة** على الجماهير . ويبدو أن الشك لم يتطرق اليه في أن الجماهير ستنصت اليه . وسألته عن الاسلوب الذي يعتزم اتباعه في هـــذا الصدد . هل سينشر كتابا يتضمن فلســفته السياسية ؟ فكان جوابه بالنفي « لا ، فالكلمة المكتوبة في مجتمعنا الفاسد تبدو أكذوبة دائما » . وعندما سألته ، اذا كان سيذهب الى هايد بارك ليعلن **الحقيقة** من فوق صندوق للصابون ، أجاب بالنفي أيضا « لا فسيكون هذا أخطر ممـــا ينبغي » . (وكانت تصدر عنه من وقت لآخر دلائل الحيطة والحصافة) وكلما سألته عما عساه أن يفعل ، كان يعمد الى تغيير الموضوع .

واكتشفت بالتدريج أن رغبته في خلق عالم أسعد لم تكن صادقة ، وانه يرغب فقط في أن يدخل في مناجاة بليغة مـــع نفسه حول فساد هذا العالم • فاذا ترامت هـــذه المناجاة الى مسامع أحد ، كان خـــيرا وبركة . ولكنه كان يقصد بها على أحسن تقدير خلق نفر قليـــل من التلاميذ والمريدين المخلصين الذين يستطيعون أن يعيشـــوا في صحراء « نيومكسيكو » ويشعروا بقدسيتهم . وقد نقل لورنس كل هـــذا الى لغة الدكتاتور الفاشستي محددا ما ينبغي على أن أبشر به ، مؤكدا اياه في الحاح واصرار .

وأصبحت رسائله أكثر عداوة عن ذي قبل فقد كتب الى قائلا « ما الفائدة في أن تحيا على هذا النحو على أية حال ؟ انني لا اعتقد أن محاضراتك حسنة ، لقد أوشكت محاضراتك على الانتهاء . أليس كذلك؟ ماجدوى الالتصاق بالسفينة الملعونة ومخاطبة الحجاج التجار بلغتهم الخاصة ؟ لماذا لا تلقي بنفسك من سطح السفينة الى عرض البحـــر ؟ لماذا لا تخرج تماما من الاستعراض كله ؟ لابد للانسان أن يكون خارجا على القانون في هذه الايام لا معلما أو مبشرا » . وقد بدا لي أن هـــذا لا يعدو أن يكون مجرد خطابة ، فقد أصبحت خارجا على القانون أكثر

مما كان هو عليه فى أية فترة فى حياته . ولم أستطع أن اتبين بالضبط سبب شكواه منى . وقد دأب على صياغة شكواه فى أساليب مختلفة فى أوقات مختلفة . وفى مناسبة أخرى كتب يقول « توقف عن العمل والكتابة تماما ، وكن دائما كائنا حيا بدلا من أن تكون آلة ميكانيكية . ابتعد تماما عن السفينة الاجتماعية كلها ، وكن مجرد لا شيء صونا لكبريائك : كن كالخلد كائنا حيا يشعر ولا يفكر . ولتكن من اجل السماء طفلا ، ولا تكن عالما بعد الان . لا تفعل اى شيء أكثر من هذا - ولكنى أستحلفك بالسموات أن تبدأ فى أن تكون . أبدأ من أول الطريق وكن باسم الشجاعة طفلا كاملا » .

« اه انى أريد أن اطلب منك عند كتابتك لوصيتك أن تترك لى من المال مايكفى لان أعيش به . وانى ارجو لك أن تعيش الى الابد ولكنى اريد منك ان تجعلنى وربما جزئيا لك » والصعوبة الوحيدة التى تعترض هذا الطلب هى اننى لو قمت بتنفيذه ، لما وجدت شيئا أورثه بعد وفاتى .

وكانت له فلسفة فى « الدم » تصوفية تثير كراهيتى . فقد قال : « هناك مركز آخر للشعور غير المخ والاعصاب » .

هناك شعور بالدم موجود فينا ومنفصل عن الشعور الذهنى العادى . فالانسان يعيش ويعرف وله كينونته فى الدم دون أن تكون هناك أية صلة بالاعصاب والمخ . وهذا يكون نصف الحياة التى تنتمى الى الظلام . فعندما أعاشر امرأة ، يسود مبدأ الدم كل شيء ومعرفتى التى استمدها عن طريق الدم تطغى على كل شيء . وينبغى علينا أن ندرك أن لنا وجودا فى الدم ، وشعورا فى الدم ، وروحا فى الدم كاملا ومنفصلا عن أى شعور ذهنى وعصبى » . وبصراحة ، بدا لى أن هذا لغو أجوف ورفضته بشدة . ولم أكن أتخيل حينذاك أن هذه الفلسفة ستفضى الى معتقل أستوتشنز (١) على الفور .

وحين اعترضت على الحرب بسبب ويلاتها اتهمنى بالنفاق وقال : « ليس من الحقيقة فى شيء انك - أنت ونفسك الاصيلة - تريد السلام . انك ترضى شهوتك للاضراب والمشاكسة بطريقة زائفة غير مباشرة . فاما أن ترضيها بطريقة مباشرة شريفة ، وتقول « اننى اكرهكم جميعا أيها الكذبة والخنازير وهاأنذا خارج لأتبرى للهجوم عليكم او أن تتمسك بالرياضيات حيث تستطيع ان تكون صادقا ، وأمينا . أما أن تظهر بمظهر ملاك السلام ، فلا . وانا افضل الف مرة أن يلعب أمير البحر تيرتبز (٢) هذا الدور » . اننى أجد صعوبة الآن فى فهم الاثر المخرب

---

(١) Auschwitz معسكر اعتقال نازى معروف

(٢) Tirpitz ادميرال فى البحرية الالمانية فى الحرب الاولى .

الهدام الذى تركه هذا الخطاب فى نفسى . وكنت أميل الى الاعتقاد بأنه يمتاز بنوع من البصيرة التى لم تتوفر لى . وعندما قال لى أن دعـــوتى للسلام تستمد جذورها من شـــهوة دموية ، افترضت أنه لا بد مصيب فيما يقول وظللت أفكر مدة أربع وعشرين ساعة فى أننى لا أصلح للحياة، وفكرت فى الانتحار . ولكن رد فعل أكثر صحة تغلب على هذا التفكير فى نهاية هذه المدة ، وقررت أن أنفض عن نفسى مثل هذه الافكار المريضة . وعندما قال لى أنه يجب على أن أبشر بمبادئه ، ولا بمبادئ ثرت فى وجهه وذكرته أنه لم يعد مدرسا وانني لست تلميذا له . لقد كتب يقول : « انك عدو الانسانية بأسرها ، مفعم بشهوة العداوة والكراهية . وأنت لا تستلهم كراهية الزيف بل تستوحى كراهيتك الناس الذين يتـدفق الدم فى عروقهم واجسادهم حارا . وما هذه الكراهية الا شـــهوة دم، ذهنية منحرفة ، لماذا لا تعرف بهذا ؟ واستمر لبضعة أشهر ، يكتب لى خطابات تحوى من شعور المودة والصداقة ما يكفى لاســتمرارنا فى التراسل . ولكن علاقتنا أصابها الفتور فى نهاية الامر ، وذوت دون أية خاتمة درامية . والذى جذبنى الى لورنس فى بادىء الامر صفة ديناميكية اكيدة كانت تميزه ، وعادته فى تحدى الافتراضات التى يتقبلها الانسان على أنها مسلمات لا يرقى اليها الشك . وكنت حينذاك قد اعتدت أن اتهم بعبوديتى المفرطة للعقل ، واعتقدت أنه ربما يستطيع أن يعطينى جرعة منعشة من اللا عقل . ولا شك أننى اكتسبت منه منبها وحافزا . وأظن أن الكتاب الذى كتبته رغم ريح هجومه العاتية ، أفضل نوعا مما لو كنت قد كتبته بدون أن أعرفه .

وهذا لا يعنى أن هناك شيئا حسنا فى أفكاره . وأنا لا أعتقـــد عندما أعود بذاكرتى الى الوراء أن أفكاره كانت تمتاز بشىء أكثر من أفكار ديكتاتور للمستقبل مستبد ، حساس كان يصب غضبه على العالم لانه يرفض أن يطيعه على الفور . وعندما أدرك أنه لا يعيش بمفرده فى هذا الكون ، كره الناس ، ولكنه كان يعيش معظم الوقت منطـويا على نفسه فى عالم من صنع خياله ممتلىء بأطياف عنيفة كما شاء لها أن تكون . ويرجع تأكيده المفرط للجنس الى أنه فى الجنس وحده كان مضطرا للاعتراف بأنه لم يكن الانسان الوحيد الموجود فى الكون . ولان هذا الاعتراف كان أليما على نفسه ، دعاه هذا لان يرى أن العـلاقات الجنسية قتال دائم يسعى كل جانب فيه الى تدمير الجانب الاخر .

لقد كان العالم فى فترة مابين الحربين ينحرف نحو الجنـون . وكانت النازية أصدق تعبير عن هذا الانحراف ، وكان لورنس المدافع المناسب عن مذهب الجنون هذا ، ولست على يقين من أن عقـــل ستالين السليم البارد غير الانسانى كان أحسن حالا .

(٣) جورج برناردشو George Bernard Shaw

يمكن تقسيم حياة برناردشو المديدة الى ثلاث مراحل . المرحلة الاولى حتى سن الاربعين ، وكان معروفا فيها كناقد موسيقى ، وعضو مجادل في الجمعية الاشتراكية الفابية (١) وروائى جدير بالاعجاب ، وصاحب نكتة ذات خطر ضد الزيف والادعاء ثم كانت المرحلة الثانية ككاتب هزلى . وفى مبدأ الامر لم ينجح فى أن تمثل مسرحياته على خشبة المسرح لانها لم تكن تشبه تماما مسرحيات بنيرو Pinero حتى أدرك مديرو المسارح أخيرا أنها مسلية فأصابت نجاحا عن جدارة واستحقاق . وأعتقد أن الامل كان يراوده طيلة حياته الاولى فى أن يتمكن من تأدية رسالته الجادة بصورة فعالة بعد أن يتحقق له اجتذاب النظارة اليه كمضحك . ولهذا فقد ظهر فى مرحلته الثالثة والاخيرة كنبى يدعو الى الاعجاب بكل من القديسة جان دارك الاتية من أورليانز والقديس جوزيف الاتى (٢) من موسكو . لقد عرفته فى كل هذه المراحل الثلاث ورأيت أنه كان فى المرحلتين الاولى والثانية ممتعا ومفيدا — ولكننى وجدت على كل حال أن اعجابى به فى المرحلة الثالثة كان محدودا .

وسمعت عنه لأول مرة فى عام ١٨٩٠ عندما قابلت وأنا طالب مستجد فى الجامعة طالبا مستجدا آخر كان معجبا بكتابه « خلاصة الابسنية » (٣) . ولكنى لم أقابله حتى عام ١٨٩٦ عندما اشترك فى مؤتمر اشتراكى دولى عقد فى لندن . وكنت أعرف عددا كبيرا من المندوبين الالمان نظرا لانى قد درست الحركة الديموقراطية الاشتراكية الالمانية . وكانوا ينظرون الى شو على أنه تجسيد للشيطان لأنه لم يكن فى وسعه مقاومة اللذة التى يحس بها عندما يزداد النزاع الناشب تطورا ، ولكنى على كل حال استمددت رأيى فيه من عائلة سيدنى ويب وأعجبت بمقاله الاشتراكى الفابى الذى حاول فيه تنحية الاشتراكية البريطانية بعيدا عن تأثير ماركس . وكان لايزال حتى ذلك الوقت خجولا . وفى رأيى انه كان يتسلح فى واقع الامر بنكاته مثله فى ذلك مثل الكثيرين من أهل الدعابة المشهورين كنوع من الدفاع ضد السخرية والهجوم الذى يتوقعه ، وفى هذا الوقت كان قد بدأ لتوه فى كتابة المسرحيات وجاء الى شقتى ليقرأ احدى هذه المسرحيات على جمع صغير من الاصدقاء .. كان الاصفرار يعلو وجهه كما كانت أوصاله ترتعش من فرط الاضطراب . وبدا أبعد مايكون عن الشخص الفظيع المروع الذى تحول اليه فيما بعد . وبعد ذلك بوقت

---

(١) Fabian نسبة الى الجمعية الفابية فى انجلترا التى كانت تنادى بالاشتراكية السلمية على عكس اشتراكية ماركس الثورية .

(٢) يقصد راسل ساخرا جوزيف ستالين بطبيعة الحال .

(٣) The quintessence of Ibsenism

قصير مكتنا سويا مع عائلة سيدني ويب فى مونموتشير انصرف خلالها الى تعلم فن التأليف الدرامى - فكان يكتب كل أسماء أشخاص مسرحيته على مربعات صغيرة من الورق وعندما كان يؤلف منظرا مسرحيا كان يضع على لوحة شطرنج أمامه أسماء الشخصيات التى تظهر على خشبة المسرح فى ذلك المنظر .

وفى هذا الوقت وقعت لكلينا حادثة دراجة خشيت لحظتها انها قد تعجل بمستقبله . كان حينذاك قد بدأ يتعلم ركوب الدراجة فارتطم بدراجتى بقوة عظيمة أطاحت به فى الهواء والقته على ظهره على مسافة عشرين قدما من مكان الاصطدام . ولكنه نهض على أية حال دون أن يصيبه أذى على الاطلاق . واستمر فى ركوب دراجته بينما تحطمت دراجتى مما اضطرنى الى العودة بالقطار . وكان قطارا بطيئا للغاية وفى كل محطة كان يظهر بدراجته على الرصيف ويدخل رأسه داخل العربة مستهزئا . وانى أشك فى أنه كان يعتبر الحادث دليلا على فضيلة الحياة النباتية .

وكان تناول طعام الغداء مع مستر شو وزوجته فى أدلفى تراس Adelphi Terrace تجربة غريبة بعض الشىء . كانت مسز شو سيدة بيت على درجة عظيمة من الكفاءة وكان من عادتها أن تقدم الى شو وجبات نباتية لذيذة الطعم للغاية لدرجة أن الضيوف كانوا يتحسرون بشكل ظاهر على قائمة طعامهم التقليدية . ولم يكن فى مقدوره أن يقاوم ترديده المتكرر بعض الشىء لحكاياته الاثيرة اليه . وكلما عرض شو لخاله الذى انتحر بأن وضع رأسه فى حقيبة سفر مصنوعة من القماش ثم أغلقها عليها - بدت على وجه مسز شو علامات ضجر مروع لدرجة أن الجالس بجوارها كان يحرص على الانصراف عن الاستماع لشو حتى لا يضايقها . ولكن هذا على كل حال لم يمنعها من اظهار الاهتمام به . وانى أذكر مأدبة غداء حضرتها شاعرة شابة جميلة آملة أن تقرأ قصائدها على شو . وعندما حان وقت انصرافنا وقمنا بتوديعه - أخبرنا شو أنها ستتخلف لهذا الغرض . ومع ذلك فقد وجدناها عند رحيلنا قد سبقتنا الى الباب الخارجى بعد أن نجحت مسز شو فى التخلص منها بطرق لم يكن من حظى أن ألحظها . وعندما بلغنى بعد هذا بوقت غير طويل أن نفس هذه السيدة كانت قد هددت ويلز بذبح نفسها لانه رفض أن يستجيب لغرامها تزايد احترامى لمسز شو عن ذى قبل .

ولم يكن اهتمام زوجة شو به أمرا ذا بال فعندما أشرف وزوجته مع ويلز وزوجته على الثمانين جاءوا جميعا لرؤيتى فى بيتى فى سوث دونز - وكان للبيت برج يطل على منظر بديع للغاية . وارتقى جميعهم الدرج لرؤيته - وكان شو أول الصاعدين ومسز شو آخرهم . وجاء

صوتها من أسفل طيلة الوقت الذى قضاه فى الصعود يناديه «ج.ب.س » لا تتحدث وأنت تصعد السلالم . ولكن نصحها لم يأت بنتيجة على الاطلاق فقد انطلق منه فيض من الحديث لم ينقطع .

وكان هجوم شو على الزيف والنفاق فى العصر الفيكتورى مفيدا كما كان ممتعا . ومن أجل هذا يدين له الانجليز بالفضل والعرفان بالجميل مافى ذلك شك . كانت محاولته اخفاء الغرور والزهو جزءا من الزيف الفيكتورى . وفى شبابى كنا جميعا نتظاهر بالتفكير فى أننا لا نفضل جيراننا . ووجد شو أن هذا الادعاء يبعث على الملل والسأم فتخلى عنه عند ظهوره للعا لم لاول مرة — لقد كان من عادة الناس الاذكياء أن يقولوا أن شو لم يكن مزهوا بنفسه بشكل غير عادى ولكنه كان صادقا وصريحا بصورة شاذة . وقد انتهيت فيما بعد الى التفكير فى بطلان هذا الزعم — فقد شاهدت بنفسى حادثين اقنعانى بهذا . وكانت أولاهما مأدبة غداء أقيمت فى لندن لتكريم برجسون ، كان شو قد دعى اليها بصفة كونه معجبا به مع عدد من الفلاسفة المحترفين الذين كانوا يقفون من برجسون موقف النقد . وبدأ شو فى عرض فلسفة برجسون والدفاع عنها بنفس الاسلوب الذى كتب به مقدمة متوشالح(١) وكان من الصعب لهذه الفلسفة حسب عرض شو لهـا أن تروق فى أعين المحترفين من الفلاسفة . فاعترض برجسون بلطف عليه قائلا فى لكنته الاجنبية « آه — لا آه هذا ليس مضبوطا تماما » (١) ولكن شو لم يستح أو يخجل على الاطلاق بل أجاب « اه يازميلى العزيز — اننى أفهم فلسفتك أكثر بكثير مما تفهمها أنت » وضغط برجسون على قبضتى يديه وكاد ينفجر غاضبا ولكنه تمالك نفسه بجهد جهيد واستمر شو فى عرض فلسفته بمفرده .

وتتلخص الحادثة الثانية فى أنه قابل مازاريك Masaryk الاكبر الذى جاء الى لندن فى زيارة رسمية والذى لمح من طرف خفى عن طريق سكرتيره الى رغبته فى أن يرى بعض الناس فى الساعة العاشرة صباحا قبل أن يبدأ فى انجاز مهام زيارته الرسمية . وكنت واحدا منهم وعندما وصلت اكتشفت أن الاشخاص الاخرين هم شو وويلز وسوينرتون Swinnerton ووصلنا جميعا فى الميعاد ماعدا شو الذى جاء متأخرا والذى تقدم لا يلوى على شىء نحو الرجل العظيم وقال له : « مازاريك . ان سياسة تشيكوسلوفاكيا سياسة خاطئة تماما » وشرح وجهة نظره فى حوالى عشرة دقائق وانصرف دون أن ينتظر رد مازاريك عليه .

---

(١) Mathuselah وهى مسرحية معروفة لشو

(٢) هذه العبارة الغريبة فى النطق فاه بها برجسون بلكنته الاجنبية وهى : It is not qvite zat

وكان شو مثل الكثيرين من أصحاب النكتة يعتبر أن النكتة بديل كاف للحكمة . وكان يدافع عن أية فكرة مهما كانت سخيفة بذكاء من شأنه أن يجعل أولئك الذين يرفضونها يبدون كالمغفلين . وقابلته ذات مرة فى مأدبة « غداء ايرهون » (١) أقيمت لتكريم صامويل بتلر وطمت لدهشتى أنه كان يقبل كل كلمة فاه بها ذلك الحكيم على أنهـــا انجيل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ كما يقبل حتى النظريات التى قيلت على سبيل المزاج لا غير ، كالزعم بأن الاوديسا قـــد كتبتها امرأة . وكان أثر بتلر عليه أكبر بكثير مما يدرك معظم الناس . فقد أخذ منه شو كراهيته لداروين مما جعله فيما بعــــد معجبا ببرجسون . ومن الامور العجيبة ان الآراء التى اعتنقها بتلر حتى يجد لنفسه عذرا ينتحله للاختلاف مع داروين قـــد أصبحت جزءا من المذهب الرسمى الاصيل المفروض على الاتحاد السوفيتى .

وليس هناك سبيل للدفاع عن احتقار شو للعلم . وهو يشـــبه تولستوى فى عدم استطاعته الايمان بأهمية أى شىء كان يجهله . وكان حادا عنيفا فى هجومه على تشريح الحيوانات الحية . وأظن أن السبب لم يكن كامنا فى عطفه على الحيوانات ولكن فى عدم ايمانه بالمعرفة العلمية التى يوفرها لنا تشريح الحيوانات الحية . واظن أن مذهبه النباتى كذلك لا يرجع الى بواعث رحيمة بل لعله يرجع الى نوازعه التى تنطوى على قهر البدن والتى عبر عنها تعبيرا كاملا فى الفصل الاخير من مسرحية « متوشالح » . وكان أحسن مافى شو يظهر فى مقدرته كجدلى ، فاذا رأى فى معارضـــه أى سخف أو زيف اتهزه فى لمح البصر ، واستغله فى صورة تزيد من أنصاره وبشكل يدعو الى اقنــــاع مؤيديه . وفى بداية الحرب العالمية الاولى أصـــدر كتـــابه « التعقـــل فيمــــا يتعلـــق بالحرب » (٢) وعلى الرغم من انه لم يكتب كواحد من أنصــــار السلام الا انه اسخط معظم الوطنيين عليه برفضه موافقة الحكومة واقرارها على اللهجة الاخلاقية العالية المنافقة التى تبنتها . لقد كان شو جديرا بالثناء فى مثل هذه الاحوال حتى وقع فريسة مداهنة الحكومة السوفيتية واطرائها المتملق له . فقد فقد كل قدرته على النقد وعلى كشف النقاب عن الزيف الوافد من موسكو ، ومع أنه كان ممتازا فى الجدل الا انه لم يرق الى مستواه الجدلى فى عرضه لارائه الخاصة التى كانت مشوشة الى حد ما حتى السنوات الاخيرة من حياته التى أقر فيها الماركسية النظامية

---

(١) Erewhon وهى قصة كتبها صامويل بتلر

(٢) Common Sense about the war

وكان شو يتسم بصفات عديدة تستحق الاعجاب العظيم فقـــد كان جسورا لا يهاب شيئا على الاطلاق ، كما كان يعبر عن ارائه فى قــوة ، ســـواء كانت هذه الاراء تروق عامة الناس أم تسوؤهم ، وكان لا يرحم فى هجومه على الذين لا يستحقون الرحمة ولكنه كان فى بعض الاحيان لا يرحم أيضا هؤلاء الذين لا يستحقون أن يكونوا ضحاياه . وباختصار يستطيع المرء أن يقول أنه أحسن كثيرا وان يكن قد أساء بعض الاساءة ، لقد كان مدهشا كمحطم للاوثان ولكنه كان ، كأيقونة تعبد ، اقل مكانة بعض الشىء .

(٤) الفريد نورث هويتهد Alfred North White head

بدأت صلتي بهويتهد أو بوالده بتعبير أصح في عام ١٨٧٧ . فقد قيل لي أن الارض كروية ولكني رفضت أن أصدق هذا لثقتي في شواهد الحواس . واستدعى قسيس الابرشية ، الذى تصادف أن كان والد هويتهد ، لاقناعي . وسعت السلطات الكنسية جاهدة لكي تحملني على التفكير في أهمية الاختبار التجريبي فبدأت احفر حفرة آملا ان اخرج منها الى الجهة المقابلة في سطح الكرة الارضية . وعندما أخبروني أن ذلك لا يجدي في شيء ، بدأت شكوكي تتجدد .

وانقطعت صلتي بهويتهد حتى عام ١٨٩٠ عندما حضرت ، كطالب جامعي مستجد محاضراته في الاستاتيكا . وطلب هويتهد من الفصل استذكار المادة ٣٥ في الكتاب المقرر . وعندئذ التفت الى وقال :« لست بحاجة الى استذكارها لانك تعرفها أصلا » ، فقد سبق أن اقتطفتها برقمها في امتحان المنحة الدراسية قبل ذلك بعشرة اشهر . ولمس شغاف قلبي بتذكره هذه الحقيقة . ولم ينته عطفه عند هذا الحد فقد طلب الى الطلبة الاذكياء أن يسعوا الى التعرف بي ، لدرجة أنني تعرفت بهم جميعا في خلال أسبوع واحد ، وأصبح الكثيرون منهم أصدقاء العمر .

وفي خلال انتقالي التدريجي من طالب الى كاتب مستقل ،استفدت من ارشاد هويتهد . وكانت نقطة التحول رسالة الزمالة التي كتبتها في ١٨٩٥ . وعندما ذهبت لاراه قبل اعلان النتيجة بيوم واحد ، انتقد عملي نقدا قاسيا بعض الشيء ، وان كان على حق تماما في نقده . وأصابتني خيبة أمل شديدة وقررت أن أرحل عن كامبريدج دون انتظار اعلان النتيجة في اليوم التالي . (وغيرت رأيي على كل حال، عندما تناول جيمس وارد James Ward رسالتي بالمدح والثناء) . وعندما بلغني أنه قد تم اختياري زميلا أنحت عليه زوجته باللائمة لقسوته على في النقد ـ ولكنه دافع عن نفسه قائلا لقد كانت تلك اخر مرة يخاطبني فيها كتلميذ . وعندما بدأت أكون في عام ١٩٠٠ آراء مستقلة ـ كان من حسن طالعي أنني استطعت اقناعه بأنها لا تخلو من الفائدة . وكان هذا اساسا لعملنا المشترك الذى استغرق عشر سنوات في وضع كتاب ضخم (١) ليس لاى منا الفضل الكامل في تأليف اى جزء منه .

وفي انجلترا كان هويتهد يعتبر عالما رياضيا فحسب ، وترك الامر لامريكا لتكتشفه كفيلسوف وكنا نحن الاثنين على خلاف في آرائنا الفلسفية لدرجة أن العمل المشترك بيننا لم يعد ممكنا . وبعد أن ذهب الى أمريكا

---

(١) Principia Mathematica

كان طبيعيا الا أراه الا نادرا . وبدات هوة الخلاف بيننا تتسع فى أثناء الحرب العالمية الاولى فقد كان يختلف معى احتلافا كليا حول دعوتى الى السلام . ولكنه كان أكثر تسامحا منى فيما يتعلق بخلافاتنا فى هذا الموضوع .

وكنت ملوما أكثر منه – على الفتور الذى اعترى علاقات الود والصداقة التى كانت تربطنا نتيجة لهذه الخلافات .

وفى الشهور الاخيرة من الحرب قتل ابنه الاصغر فور بلوغه الثامنة عشرة . وسبب له هذا ألما مروعا . ولم يتمكن من الاستمرار فى عمله الا بمجهود هائل ينطوى على ترويض النفس . وكان للالم الذى احس به لهذه الكارثة علاقة وثيقة بتوجيه أفكاره شطر الفلسفة وبالسبب الذى حدا به الى البحث عن وسائل للهرب من الايمان بكون ميكانيكى لا غير . وكانت فلسفته غامضة للغاية كما كان فيها الكثير مما لم انجح فى فهمه قط . وقد كان يبدى دائما ميلا نحو « كانت » الذى لم أحسن الظن به – وعندما بدأ فى تكوين فلسفة مستقلة خاصة به كان واقعا تحت تأثير برجسون البالغ . وكان شديد التأثر بنظرية وحدة الوجود ، ويعتقد انه عن طريق هذه الوحدة فقط يمكن للاستدلالات العلمية أن تجد لها مبررا . أما مزاجي فقد قادنى الى الاتجاه المضاد وانى اشك اذا كان العقل الصرف يستطيع أن يقرر من منا كان أقرب الى الصواب من الاخر . وقد يقول أولئك الذين يفضلون نظرته الفلسفية أنه يرمى الى ادخال العزاء فى نفوس العاديين من البشر فى حين أهدف أنا الى ادخال القلق فى نفوس الفلاسفة . وقد يرد من يفضل نظرتى بأنه بينما هو يدخل السرور على الفلاسفة اقوم انا بتسلية العاديين من الناس . ومهما يكن الحال فقد افترقت سبلنا رغم بقاء الود بيننا حتى النهاية .

كان هويتهد رجلا متعدد الاهتمامات بشكل غير عادى، فكان يدهلنى بمعرفته للتاريخ . واكتشفت ذات مرة بطريق المصادفة انه يقرأ كتاب بأولوساربى « تاريخ مجمع ترنت » (١) وهو عمل جاد للغاية ويندر العثور عليه – ويطالع فيه قبل أن يهجع للنوم . وكلما عرضت موضوعات تاريخية استطاع دائما أن يدلى ببعض الحقائق التى تلقى ضوءا عليها كالعلاقة مثلا بين آراء بيرك السياسية ومصالحه فى حى بيوتات الاموال فى لندن The City والعلاقة بين هرطقة جون هوس (٢) واتباعه وبين مناجم الفضة فى بوهيميا . ولم يذكر اى انسان هذا أمامى قط حتى بضعة أعوام خلت عندما أرسل الى بحث ثقة

---

(١) Paolo Sarpi «History of the council of Trent»

(٢) John Huss مصلح اجتماعى فى بوهيميا اتهم بالهرطقة تطورت دعوته الى حركة قومية ضد ألمانيا والبابا فى القرن الخامس عشر .

في هذا الموضوع . ولم يكن لدى فكرة عن المصـــادر التى كان هويتهد قد استند اليها فى استيقاء معلوماته . ولكنى علمت أخيرا من مستـــر جـــون كينير بيــل John Kennair Peel أنــه من المحتمل أن يـــكون هويتهد قد استقى معلوماته من كتاب الكونت لتزو « بوهيميا : وصــف تاريخى اجمالى » وكان هويتهد يتسم بالدعابة المتعة والرقة العظيمة .
وعندما كنت طالبا فى الجامعة كان الطلبة يلقبونه فى تهكم « بالمـــلاك شاروبيم » وهى تسمية يرى من عرفوه فى حيانه فيما بعد انها تنطوى على عدم الاحترام اللائق به وان كانت تناسبه حينذاك . وتنحدر عائلته من مقاطعة كنت وانصرف اعضاؤها الى الاشتغال كقساوسة منـــذ الوقت الذى وطئت فيه قـــدم القديس أوغسطين أرض هـــذه المقاطعة على وجـــه التقريب . وفى كتـــاب للوســين بريس Lucien Price يسجل فيه محاوراته فى أمريكا يصف هويتهد انتشار التهريب فى جزيرة ثانيت Isle of Thanet فى مطلع القرن التاسع عشر حين جرت العادة على اخفاء البراندى والخمر فى اقبية الكنيســة بموافقـــة القسيس . ويضيف هويتهد معلقا « وفى أكثر من مرة كانت جماعة المصلين تؤجل الصلاة حتى تخفى الخمور عن الانظار يساعدها فى ذلك القسيس نفسه، عندما توافيها الاخبار وهى تنشغل بالقداس بقدوم الضباط المداهمين من بعيد على الطريق . وهذا دليل على مقدار الصلة الوثيقة التى تربط كنيسة انجلترا بحياة الامة » . وقد هاجر جده اليها من جزيرة شيبى Isle of Sheppy

وانه مما يثلج صدرى اننى قابلته لاول مرة فى جزيرة ثانيت لان لتلك المنطقة مكانة أقرب بكثير الى شـغاف قلبه من كامبريدج نفسها . واحسست انه ينبغى تسمية كتـــاب لوسين بريس بـ « هويتهد فى بـــارتيبـــوس Partibus وبارتيبـــوس لاتعنى كل شىء خـــــارج انجلترا بل كل شىء خارج جزيرة ثانيت .

وكان من عادته أن يروى فى تسلية وسرور أن جـــدى الذى كان يزعجه كثيرا انتشار الكاثوليكية الرومانية استحلف أخت هويتهـــد الا تهجر كنيسة انجلترا . ومبعث تسليته أن ذاك الامر كان بعيد الاحتمال للغاية وكانت آراء هويتهد فى اللاهوت تغاير اللاهوت الاصيل السائد . ولكن شيئا من جو الابرشية استمر فى أساليب مشاعره وظهر فيما بعد فى كتاباته الفلسفية .

كان هويتهد رجلا متواضعا للغاية . واقصى ماوصل اليـــه من فخار هو محاولته الاكيدة الاعتراف بالصفات التى تعيبه . ولم يســئه أبدا أن يروى قصصا عن نفسه تتضمن عيـــوبه فقد كانت هنـــاك فى كامبريدج سيدتان شقيقتان متقدمتـــان فى السن كان مسلكهما يوحى بأنهما قد خرجتا لتوهما من شخصيات رواية « كرانفورد » ولكنهما كانتا فى حقيقة الامر تقدميتين بل جريئتين فيما ذهبتا اليه من آراء

وكانتا تتصدران كل حركة للاصلاح . واعتاد هويتهد ان يروى وهو حزين بعض الشيء كيف أن مظهرهما الخارجي خدعه عندما قابلهما لاول مرة وظن أنه من دواعي تسليته أن يصدمهما قليلا ولكنه عندما عرض رأيا طفيفا في ثوريته قالتا : ـ « أوه يا مستر هويتهد انه ليسرنا عظيم السرور أن نسمع منك هذا الراى » ـ بطريقة أوضحت انهما كانتا تنظران اليه حتى ذلك الحين على انه ركيزة من ركائز الرجعية .

وكانت قدرته على التركيز فى عمله غير عادية للغاية . وذات يوم قائظ من أيام الصيف عندما كنت أمكث معه فى جرانتنر وصل صديقنا كرومتون ديفز Crompton Davies فرافقته الى الحديقة لتحية مضيفه . كان هويتهد منكبا على حل الرياضيات توقفنا أمامه على مسافة لاتزيد عن ياردة . وراقبناه وهو يملأ الصفحة تلو الصفحة بالرموز . ولم يرنا مطلقا ـ وبعد وقت انصرفنا وفى نفوسنا احساس بالرهبة .

ويدرك الذين عرفوا هويتهد عن كثب جوانب متعددة فيه لم تظهر فى العلاقات السطحية الموقوتة . فقد بدا من الناحية الاجتماعية عطوفا وعقليا لايعرف التأثر الى قلبه سبيلا أما فى حقيقة الامر فقد كان الشخص الذى يتأثر ـ ولم يكن بكل تأكيد ذلك الوحش غير الانسانى « الرجل العقلى » وكان اخلاصه لزوجته وأطفاله عميقا متأججا ، كما كان شديد الادراك فى كل وقت من الأوقات لاهمية الدين وفى شبابه كاد أن يتحول الى الكاثوليكية الرومانية عن طريق تأثير الكاردينال نيومان فيه .

وأمدته فلسفته فيما بعد ببعض ماكان يصبو اليه من الدين . وكان يناجى نفسه نجوى حزينة ـ مثله فى ذلك مثل الاخرين الذين يعيشون حياة شديدة الخضوع للنظام . وعندما كان يفكر فى وحدته كان يتفوه بألفاظ السباب يوجهها الى نفسه باعتبارها مسئولة عن عيوبه التى يتصور وجودها . وكانت أولى سنوات زواجه ملبدة بسحب المضايقات المالية وعلى الرغم من انه وجد صعوبات شديدة فى تحملها الا انه لم يسمح لها أن تبعده عن عمله الذى كان هاما وان لم يكن مجزيا .

وكانت تتوفر له قدرات عملية لم تجد لها مجالا كبيرا فى الوقت الذى كنت أعرفه فيه معرفة وثيقة كما كان على درجة مذهلة من الذكاء مما مكنه من شق طريقه بين أعمال اللجان بطريقة ادهشت أولئك الذين يعتقدون انه نظرى تماما ولا يعرف شيئا من أمور الدنيا . وكان من الممكن أن يصبح اداريا كفئا لولا عدم مقدرته على الرد على الرسائل .

وذات مرة كتبت اليه رسالة أسأله عن مسألة رياضية كنت فى حاجة الى اجابة عنها على عجل لاضمنها مقالا كنت أكتبه ضد بوانكارى . ولم يرد على خطابى فكتبت اليه مرة أخرى . ومع ذلك لم أتلق منه ردا فلما

لم يجب أبرقت اليه وعندما استمر فى التزام الصمت ارسلت اليـــه برقية خالصة الرد ولكنه تحتم على فى نهاية الامر أن أسافر اليه فى برود ستيرز لكى أظفر منه بالاجابة واعتاد أصدقاؤه علىهذا المسلك الشاذ بالتدريج • وعندما كان أى منهم يرد اليه رسالة فيما ندر يجتمع بقية أصدقائه لتهنئته • وكان يبرر تصرفه بقوله انه اذا قام بالرد على الرسائل فلن يتوفر لديه وقت للعمل المبتكر • وأظن أن هذا التبرير صحيـــح ولا سبيل للرد عليه •

وكان هويتهد مدرسا كاملا فهو يهتم اهتماما شخصيا بكل من كان عليه أن يتعامل معهم ويتعرف على نقاط القوة والضـعف فيهم وكان يستخلص من اى تلميذ له أحسن مايقدر هذا التلميذ على القيـام به . ولم يكن يلجأ الى الكبت او السخرية او التعالى او غيرها من الصـفات التى يحلو لصغار المدرسين أن يلجأوا اليها . واعتقد أنه نفث روحـه فى كل الشباب القادر الكفء الذى ربطته به صلة كما نفث فى حبا صادقا باقيا .

(٥) جوزيف كونراد Joseph Conrad

تعرفت بجوزيف كونراد فى سبتمبر عام ١٩١٣ عن طريق صديقتنا المشتركة الليدى أتولين موريل Attoline Morrell . وقد كنت لعدة سنوات معجبا بكتبه . ولكنى لم أكن اجرؤ على التعرف به دون ان يقدمنى أحد اليه . وسافرت لمقابلته فى بيته بالقرب من اشفورد Ashford فى كنت Kent وانا فى لهفة بعض الشيء . وكان أول انطباع تركه فى نفسى هو الدهشة ، فقد كان يتكلم الانجليزية فى لكنة أجنبية واضحة للغاية ، ولم يكن هناك فى مسلكه مايوحى بأثر البحر بأى حال من الاحوال . كان سيدا مهذبا بولنديا ارستقراطيا حتى أطراف أصابعه . وكان شعوره نحو البحر ونحو انجلترا شعور الحب الرومانسى الحالم — ولكنه حب على درجة من البعد تكفى لان تترك الرومانسية الحالمة دون أن تتسخ أو تشوبها شائبة . وبدأ حبه للبحر يظهر فى سن مبكرة جدا . وعندما أخبر والديه أنه يرغب فى أن يصبح بحارا . حثه أبواه على أن يلتحق بالبحرية النمسوية ، ولكنه كان يتوق الى المغامرة والبحار الاستوائية والانهار الغريبة التى تحيط بها الغابات السوداء . ولم توفر له البحرية النمسوية مجالا لارضاء هذه الرغبات . وهال العائلة أن يبحث عن عمل له فى البحرية التجارية الانجليزية وحاولت أثناءه عن عزمه ولكن قناته لم تلن .

وكان — كما قد يرى أى انسان من كتبه — اخلاقيا متشددا للغاية ، وأبعد مايكون من الناحية السياسية عن العطف على الثورات . وكنا — هو وانا — فى اغلب آرائنا ابعد ماتكون عن الاتفاق ، ولكننا كنا متفقين بشكل غريب على شيء أساسى جدا .

كانت علاقتى بجوزيف كونراد تغاير أية علاقة لى تربطنى بأى انسان آخر ولم اكن أراه الا لماما ، ولفترة من الاعوام لم تطل . كنا فى الاعمال الخارجية من حياتنا نكاد نكون غرباء ، ولكننا كنا نتقاسم نظرة معينة للحياة الانسانية وللمصير البشرى ، نظرة ربطتنا منذ البداية بوشائج متينة للغاية . وقد يجوز أن يغفر لى اقتطاف عبارة وردت فى خطاب كتبه لى بمجرد أن تم تعارفنا وينبغى على أن أشعر بأن التواضع يمنعنى من اقتطاف هذه العبارة لولا انها تعبر تماما عما كنت احس به نحوه . وكان ماعبر عنه يطابق ماكنت اشعر به ، قال :

« اننى أحمل لك حبا عميقا ينطوى على الاعجاب ، سيظل — حتى اذا لم ترنى أبدا مرة أخرى ونسيت وجودى غدا — لايتغير وملكا لك حتى النهاية » .

وكنت أحمل الاعجاب لقصته العظيمة المروعة المسماة « قلب

الظلام » (١) اعجابا يفوق اعجابى بأى عمل آخر له ، ففيها نرى انسانا مثاليا ضعيفا بعض الشيء ينساق نحو الجنون لبشاعة الغابة الاستوائية والغربة بين المتوحشين . وتعبر هذه القصة فيما أظن تعبيرا تاما عن فلسفته فى الحياة . وشعرت ــ رغم اننى لا أعرف اذا كانت مثل هذه الصورة ستجد صدى فى نفسه أم لا ــ أنه ينظر الى الحياة الانسانية المتحضرة ، والمحتملة من الناحية الاخلاقية ، نظرته الى المشى المحفوف بالمخاطر فوق طبقة رقيقة من الحمم البركانية التى بردت بصورة طفيفة ، والتى يمكن أن تقذف حممها فى أية لحظة وتجرف أمامها من لا يتنبه لها ، وتغوص به فى أعماق نارية ملتهبة . وكان شديد الادراك للصور المختلفة التى يتخذها جنون العواطف المشبوبة التى يتعرض لها الانسان ، وكان هذا بالذات ما جعله يؤمن ايمانا عميقا بأهمية النظام . وربما يجوز للمرء أن يقول ان وجهة نظره كانت على نقيض ما يراه روسو من أن « الانسان يولد مكبلا بالاغلال ، ولكنه يستطيع أن يصبح حرا » . وأنا أعتقد أن كونراد يرى فى هذا المجال أن الانسان يصبح حرا لا باطلاق العنان لنوازعه ، ولا بانعدام السيطرة والاهتمام ، ولكن باخضاع البواعث المنحرفة من اجل غرض مسيطر .

ولم يكن يولى النظم السياسية كثيرا من الاهتمام رغم انه كانت لديه بعض المشاعر السياسية القوية . وكان أقوى هذه المشاعر هو حبه لانجلترا وكراهيته لروسيا اللذان عبر عنهما فى « العميل السرى » (٢) وقد عبر عن كراهيته لكل من روسيا القيصرية والشيوعية بقوة عظيمة فى « تحت العيون الغربية » (٣) وكانت كراهيته لروسيا من ذلك النوع التقليدى السائد فى بولندا . وبلغت هذه الكراهية الحد الذى منعه من أن يعترف بفضل لأى من تولستوى او دستيوفسكى . وقد قال لى ذات مرة ان تورجنييف هو الروائى الروسى الوحيد الذى يكن له الاعجاب .

وفيما عدا حبه لانجلترا أو كراهيته لروسيا ، لم يكن يحفل بالسياسة كثيرا . فقد كان مهتما بالروح الانسانية الفردة وهى تجابه عدم اكتراث الطبيعة وتجابه غالبا عداوة الانسان كما تتعرض للصراعات الداخلية مع الأهواء ، الخير منها أو السيء ، التى تقود نحو الدمار . وكانت مآسى الوحشية والوحدة تشغل جانبا كبيرا من فكره وشعوره ومن أكثر قصصه تمثيلا لاتجاهاته قصة « اعصار الصين » (٤) ففى هذه القصة يقود القبطان ــ وهو انسان بسيط ــ سفينته حتى يخلصها

(١) The Heart of Darkness
(٢) The Secret Agent
(٣) Under Western Eyes
(٤) Typhoon

من براثن العاصفة فى شجاعة لا تتزعزع واصرار متجهم . وعندما تنتهى العاصفة يكتب خطابا طويلا لزوجته ينبئها فيه بالعاصفة وفى سرده لما حدث يروى الدور الذى لعبه على أنه دور بسيط للغاية لا يعـــدو مجرد انجاز واجبه كقبطان ، كما يتوقع اى انسان بطبيعة الحـــال . ولكن القارىء يدرك من ثنايا روايته كل ما قام به ، وكل ما جسر على عمله، وكل ما قاساه وتحمله . وقبل أن يبعث بالخطاب ، يطلـــع خادمه فى السفينة عليه ولكن الخطاب يظل الى الأبد لا يقرؤه أحد على الاطلاق لأن زوجته تجده مملا يبعث على السأم فتقذف به بعيدا دون أن تطلع عليه .

والشيئان اللذان يبـدو انهما يشـغلان كونراد أكثر من اى أمر آخر ، هما الوحدة والخوف مما هو غريب. فقصته «منبوذ الجزر» (١) تشبه « قلب الظلام » فى كونها تعالج الخـوف مما هو غـريب . وكلا الوحدة والخوف مماهو غريب يظهران فى القصة المسماة «آمى فوستر» (٢) التى تؤثر فى النفس تأثيرا غير عادى . وفى هذه القصة نرى فلاحا سلافيا من الجنوب فى طريقه الى أمريكا هو الوحيد الذى يبقى على قيد الحياة بعد تحطيم سـفينته ، وتقـذف به لجج الموج الى قـرية فى كنت (٣) وتخشاه كل القرية وتسىء معاملته فيما عدا « آمى فوستر » وهى فتاة قبيحة غبية تحضر له الخبز وهو يتضور جوعا ثم تتزوجه فى النهاية. ولكن الفزع مما هو غريب يستولى عليها أيضا عندما يعود زوجها الذى تشتد الحمى به الى لغـة أهل بلده ، وتنتزع طفلهما ، وتهجر زوجهـا فيموت وحيدا دون أهل . لكم عجبت فى بعض الاحيان لمقـدار ما كان كونراد نفسه يشعر به وهو يعيش بين الانجليز من وحشة يحس بهـا هذا الرجل والتى كان يكبتها بجهد ارادى صارم .

كانت وجهة نظر كونراد أبعد ما تكون عن أن تتصف بالعصرية . فهناك فى العالم الحديث فلسفتان احداهما ، تنحدر من روسـو وهى تضع النظام جانبا على أنه غير ضرورى . والاخرى تجد أكمل تعبير لها فى النظم التوتاليرية (الديكتاتورية) وتؤمن بأنه لا بد من فرض النظام بالضرورة من الخارج. أما كونراد فيتمسك بالتقليد الأكثر قدما وفحواه أن النظام ينبغى أن ينبع من الداخل . وهو يحتقر انعدام النظام كمـا يكره النظام الذى يفرض من الخارج لا أكثر .

والفيت نفسى فى كل هذا متفقا اتفاقا وثيقا معه . وعندما التقينا لأول مرة دار الحديث بيننا فى ألفة ومودة تزايدتا بصورة مستمرة .. وبدا أننا نغوص سويا خلال طبقة بعد طبقة من السطحيات حتى وصلنا بالتدريج الى « النار المركزية » . وكانت تجربة لا تدانيها أية تجـربة

---

(١) An Outcast of the Islands

(٢) Amy Foster

(٣) تقع على الساحل الجنوبى الشرقى من انجلترا

أحرى كابدتها . والتقت عيوننا وتبادلنا النظرات ونحن أنصاف مرتاعين وأنصاف سكارى عندما وجدنا أنفسنا معا فى مثل هذه المنطقة ، كانت العاطفة التى كابدتها متأججة كعاطفة الحب المشبوب كما كانت فى نفس الوقت تشتمل على كل شىء فى طياتها وخرجت من عنده وأنا مذهول لا أكاد استطيع أن أجد طريقى بين شئون الحياة العادية ومجرياتها .

ولم ار كونراد ابان الحرب أو بعدها حتى عودتى من الصين فى عام ١٩٢١ وعندما انجبت طفلى الاول فى هذا العام ، رغبت أن يكون كونراد اباه فى العماد على قدر المستطاع دون اتمام المراسيم الرسمية . وكتبت الى كونراد أقول « اننى أود بعد استئذانك أن أسمى ابنى جون كونراد . لقد كان أبى يسمى جون وكذلك جدى. وكذلك جدى الكبير. وكونراد اسم أرى الافضال والمزايا تتمثل فيه » . وقبل هذا الوضع وقدم لابنى فى حينه الكأس المتبع تقديمها فى مثل هذه المناسبات .

ولم أره فيما بعد الا قليلا لاننى كنت أعيش معظم العام فى كورنوال، وكانت صحته فى تدهور . ولكنى تسلمت منه بعض الرسائل الساحرة اذكر منها على وجه التخصيص خطابا عن كتابى عن الصين كتب فيه يقول : « لقد كنت دائما أحب الصينيين ، حتى هؤلاء الذين حاولوا قتلى (مع بعض الناس الآخرين) فى فناء منزل خاص فى تشانتابن حتى الشخص (وان كنت لا احمل له كبير الحب) الذى سرق كل ما أملك من مال ذات ليلة فى بانكوك ولكنه قام بتفريش ملابسى ، وطواها فى عناية ونظام حتى ارتديها فى الصباح ، قبل أن يختفى فى أعماق سيام . وقد أولانى صينيون مختلفون حبهم وعطفهم الكثير وبالاضافة الى أمسية قضيتها فى تبادل الحديث مع سكرتير صاحب السعادة تسنج فى شرفة فندق ، ودراسة قصيدة شعر بعنوان « الصينيون عبدة الأوثان » دراسة غير جادة أو مكترثة ، فهذا كل ما اعرفه عن الصينيين . ولكن بعد قراءة رأيك الممتع للغاية فيما يتعلق بالمشكلة الصينية أنظر نظرة ملؤها التشاؤم الى مستقبل بلدهم » . ومضى يقول ان آرائى عن مستقبل الصين « تبعث القشعريرة فى روح الانسان وخاصة لأنى على حد قوله وضعت آمالى فى الاشتراكية الدولية » . وقال معلقا : « هذا النوع من الاشياء الذى لا أستطيع ان افهم له معنى محددا . اننى لم اتمكن ابدا من أن أجد فى كتاب لأى انسان أو فى حديث لأى انسان أى شىء مقنع بالدرجة الكافية ينهض للحظة واحدة فى وجه احساسى المستقر فى أعماقى بالقدر الحزين الذى يحكم هذا العالم الذى يسكنه الانسان . » واستمر فى قوله انه رغم ان الانسان قد تعلم أن يطير الا أنه لا يطير كما تطير النسور بل يطير كما تطير الخنافس « ولا بد أنك قد لاحظت كيف ان طيران الخنافس قبيح ومضحك وأخرق » . وشعرت أنه فى هذه التعليقات المتشائمة يظهر حكمة أعمق مما أظهرت

فى آمالى الزائفه بعض الشىء فى حل سعيد للصين . ويجب القول بان الحوادث قد اثبتت صحة قوله حتى الآن .

وكان هـذا الخطاب آخر اتصـال لى به فلم أره ابدا بعد ذلك لأتحدث اليه وفى مرة رأيته عبر الطريق وهو منهمك فى حديث معرجل لا اعرفه وهو واقف خارج باب المنزل الذى كان بيت جدتى فى يوم من الايام ، والذى تحول بعد وفاتها الى ناد للفنون . ولم أشأ أن أقاطـع ما بدا حدثنا جادا فانصرفت . وعنـدما مات بعد ذلك بوقت قصير اسفت على انني لم اكن اكثر جراة . اما المنزل فقد دمره هتلر وزال من الوجود . وانى أرجـح أن كونراد يطويه النسيان . ولكن نبله المتأجج الشديد يسطع فى ذاكرتى كأنه نجم يراه الرائى من أعماق بئر . وأود أن استطيع أن أجعل ضياءه تستطع للآخرين مثلما سطعت لى .

(٦) جورج سنتيانا George Santayana

قابلت سنتيانا لأول مرة فى «نميل روف جاردن» ذات امسية دافئة من امسيات يونيو عام ١٨٩٣ ، وبعد يوم قائظ يتصبب فيه العرق أصبحت درجة الحرارة لذيذة ممتعة كما غدا منظر لندن فاتنا ، كنت قد انتهيت من البحث الرياضى المقدم لجامعة كامبريدج بعد عشرة أعوام من العمل المضنى الشاق وكنت على وشك أن أشرع فى دراسة الفلسفة . وأخبرنى أخى الذى عرفت سنتيانا عن طريقه انه فيلسوف ، ولذلك نظرت اليه فى اجلال عظيم زاد من شأنه أننى كنت أحس بالتحرر والانطلاق . وكانت له حين ذاك عينان واسعتان لامعتان على قسط وافر من الجمال . وأنصت اليه باحترام لأنه بدا لى كما لو كان تجسيدا لمركب صعب ـ أعنى الجمع بين أمريكا وأسبانيا . وأنا لا أستطيع أن أذكر على أية حال ـ أى شىء من الحديث الذى دار بيننا فى تلك المناسبة .

وحين نونمت معرفتى به وجدت أن علاقتنا يربطها شىء من التعاطف وان كان الكثير من أوجه الخلاف يشوبها . وكان يزعم لنفسه شيئا من الموضوعية التى لم تكن مخلصة تماما . ورغم أن والديه كانا أسبانيين الا أنه شب وتربى فى بوسطن وباشر التدريس فى جامعة هارفارد . ومع ذلك ـ فقد كان دائب الشعور بأنه منفى من أسبانيا . وعندما اندلعت السنة الحرب الاسبانية الأمريكية وجد نفسه شديد التحمس للجانب الاسبانى . وقد لايكون فى هذا مايدعو الى الدهشة لأن والده كان حاكما لمانيلا . وكانت مظاهر الموضوعية وعدم التحيز التى اعتاد أن يبدو عليها تختفى كلما كان الأمر يتعلق بوطنيته الأسبانية . وكان من عادته أن يقضى الصيف فى منزل أخته فى مدينة أفيلا القديمة ـ وذات مرة وصف لى كيف أن السيدات هناك يجلسن بجوار نوافذهن يغازلن معارفهن من الذكور وهم يمرون عليهن ثم يكفرن بعد ذلك عن هذا الأسلوب فى تزجية وقت الفراغ بالذهاب للاعتراف . ولما اندفعت معقبا على ذلك بقولى «يظهر أن هذه الحياة سقيمة ، مملة بعض الشىء ـ اعتدل وأجاب فى حدة «انهن يقضين حياتهن فى أعظم شيئين ؛ الحب والدين» .

وكان من الممكن له أن يبدى اعجابه بالاغريق والايطاليين فى العصر الحديث ـ وحتى بموسولينى . ولكنه لم يكن فى امكانه أن يشعر باحترام حقيقى نحو أى انسان يأتى من شمال جبال الألب ـ وكان فى رأيه أن شعوب البحر المتوسط وحدها هى القادرة على التأمل ـ ولذلك فهى وحدها القادرة على أن تخرج فلاسفة حقيقيين . وكان ينظر الى الفلسفات الألمانية والبريطانية على أنها محاولات عاثرة لأجناس غير ناضجة ـ كما كان يروقه فى البلاد الشمالية الرياضيون البدنيون ورجال الأعمال . كان صديقا حميما لأخى الذى لم يسول له النزق والاندفاع بذل محاولات للولوج الى لغز الألغاز الفلسفية . ولكن موقفه نحوى ونحو فلاسفة الشمال الآخرين ينم عن الاشفاق الرقيق لمحاولتنا الوصول الى شىء أعلى وأرفع من أن نرقى

اليه . ولم يسيء بحال من الاحوال الى علاقات الود التى كانت تربط الواحد بنا بالآخر لان شعورى الوطنى الاكيد كان على قدم المساواة مع شعوره تماما .

كان سنتيانا فى حياته الخاصة شبيها جدا بما كان عليه فى كتبه كان دمث الأخلاق شديد الرقة والعناية فيمايقوم به ـ كما كان من النادر جدا أن تثور أعصابه . وقبل موقعة مارن Marne بأيام قلائل ـ عندما بدا استيلاء الألمان على باريس وشيك الوقوع ـ قال لى «أظن أنه يجب على أن اذهب الى باريس لأن ملابسى الداخلية الشتوية موجودة هناك ـ وأنا لاأحب أن تقع فى قبضة الألمان . وقد تركت هناك أيضا مخطوط ـ كتاب قضيت فى تأليفه العشرة الأعوام الماضية . ولكن هذا لا يهمنى كثيرا جدا» ولكن موقعة مارن وفرت عليه على كل حال ضرورة القيام بهذه الرحلة .

وذكر لى ذات أمسية فى كامبريدج بعد انقضاء فترة كنت أراه فيها كل يوم «اننى سأذهب الى اشبيليه غدا . فأنا أرغب فى أن أكون فى مكان لايكبت الناس فيه عواطفهم» وفى ظنى أن هذا الموقف ليس من الغرابة فى شيء لرجل يكبت عواطفه القليلة .

ويروى فى سيرة حياته التى كتبها عن نفسه عن احدى المناسبات التى استطاع فيها أخى أن يثير فيه قدرا من الانفعال والشعور الدافيء اذ كان أخى يملك يختا دعا اليه سنتيانا ليصاحبه فيه . وكان اليخت راسيا فى مكان موحل . ولم يكن هناك سبيل للوصول اليه الا عن طريق (سقالة) ضيقة للغاية واستطاع أخى أن يعبرها فى يسر وخفة ولكن سنتيانا كان يخشى أن يسقط فى الوحل . ومد أخى يده ليعاونه . ولكن لسوء الحظ اختل توازن سنتيانا لدرجة أن كليهما سقطا (بطرطشة) فى الوحل شبه السائل على ضفة النهر. ويروى سنتيانا بشيء من الرعب أن أخى استعمل فى هذا المقام ألفاظا لم يكن ليتوقع من ايرل أن يعرفها .

وكان سنتيانا يبدو دائما على قدر من التأنق بعض الشيء فقد كانت ملابسه أنيقة على الدوام كما كان يلبس حتى فى أزقة الريف أحذية برقبة ذات أزرار ، مصنوعة من الجلد اللامع . وأظن أن من الممكن لأى انسان على قدر كاف من الذكاء أن يتكهن بهذه الصفات من ثنايا أسلوبه الادبى .

وعلى الرغم من أنه لم يكن كاتوليكيا مؤمنا الا أنه كان يحبذ بشدة الدين الكاثوليكى بشتى الطرق السياسية والاجتماعية .ولم يكن يرى هناك داعيا لأن تؤمن جماهير الناس بشيء حقيقى . فقد كان مايرغب فيه هو أن تؤمن جماهير الناس بأسطورة ما ـ تستطيع أن تظفر برضاءه وتحوز قبوله من الناحية الجمالية . ودعاه هذا الموقف بطبيعة الحال الى أن يكون شديد العداء للبروستانتية كما جعل الناس الذين يميلون نحو البروستانتية يتعرضون له بالنقد والهجوم . وأدان وليم جيمس رسالته للدكتوراه ووصفها بأنها «الكمال فى العفن» . ورغم أن الرجلين اشتغلا سويا سنوات كثيرة الا أن أحدهما لم ينجح أبدا فى أن يحسن الظن بالآخر .

ولم أستطع أبدا من ناحيتى أن أعتبر سنتيانا فيلسوفا من وجهة

النظر الفنية رغم اعتقادى أنه أفاد كنافد بابداء وجهة نظر لم تعد الآن شائعة · والى حد ماأخفى الرداء الأمريكى الذى تدثرت به كتاباته ، طبيعة تفكيره الرجعى المتطرف · ولم يكتف كاسبانى بأن يؤيد الكنيسة سياسيا فى سائر المحاولات التى تبذلها لتدعيم التقاليد العتيقة فى ذلك البلد ـ ولكنه كفيلسوف رجع الى حد كبير الى المدرسية السائدة فى القرن الثالث عشر · ولم يعرض هذا المذهب بصراحة كما فعل أتباع القديس توماس الجدد ـ ولكنه أشار اليه تحت أسماء مختلفة ـ حتى يعمى على القارىء فلا يعرف المصادر التى نبع منها تفكيره· وليس من العدل القول بأن آراءه هى نفس آراء المدرسيين فى القرون الوسطى تماما ـ فقد أخذ من أفلاطون أكثر مما أخذ من القديس توماس · ولكنى أظن أنه لو قدر له وللقديس توماس ان يلتقيا ـ لوجدا أنفسهما على اتفاق وتفاهم كبير للغاية ·

وكتاباه الرئيسيان فى الفلسفة البحتة هما «حياةالعقل»(١) الذى نشر فى عام ١٩٠٥ و « مناطق الوجود » (٢) الذى نشر بين عامى ١٩٢٧ و١٩٤٠ · ويعالج سنتيانا حياةالعقل تحت خمسة رؤوس موضوعات هى العقل فى الذوق العام والادراك Common Sense - المجتمع الدين الفن ـ العلم وأنا شخصيا لاأرى أن مثل هذا الكتاب يستميل القارىء نحو هذا الضرب من الحياة التى يعتبره سنتيانا عقليا ـ فهو كتاب هادىء أكثر مما ينبغى ينظر الى الأشياء نظرة استعراض لها ، كما أنه لاينبض بالعاطفة ، العاطفة التى تبدو لى على أقل تقدير ـ رغم أنه قد يتعين اخضاعها والتحكم فيها ـ عنصرا جوهريا فى أية حياة تستحق أن نحياها · وكتابه «مناطق الوجود» الذى كان آخر عمل فلسفى هام له ـ يتناول على التوالى موضوعات الجوهر والمادة والحقيقة والروح · وفى هذا الكتاب شأنه فى ذلك شأن كتبه الفلسفية الأخرى لايعنى سنتيانا بأن يسوق فيه الأدلة والبراهين · والكثير مما يقول وخاصة فيما يتعلق بالجوهر يتجاهل الكثرة من الأبحاث التى يعتبرها معظم الفلاسفة المحدثين هامة ومرتبطة بالموضوع · فقد أغفل المنطق الحديث الذى ألقى ضوءا جديدا كاشفا على مشكلة الكليات القديمة Universals التى شغلت جانبا عظيما من اهتمام المدرسيين · ويبدو ان كتاب سنتيانا «منطقة الجوهر»(٣) يفترض سلفا ـ بمعنى من المعانى على أية حال ـ حقيقة الكليات · انه لمن النزق والتهور القول بأن مذهبه باطل ، ولكنها صفة من صفات سنتيانا أن يفترض فى هدوء صحة هـذا المذهب دون أن يعنى أو يأبه بتقديم أية أدلة لاثباته ·

وعلى الرغم من أنه قضى معظم حياته العاملة كأستاذ للفلسفة فى هارفارد الا أن أهميته من الناحية الأدبية تفوق أهميته من وجهة النظر الفلسفية · وفى رأيى أن أسلوبه فى الكتابة لايمثل تماما ماينبغى أن يكون عليه الأسلوب · فأسلوبه مثل أحذيته الطويلة الرقبة ، المصنوعة من الجلد اللامع ·· ناعم ومصقول أكثر مما ينبغى · والانطباع الذى تتركه قراءة

---

(١) The Life of Reason

(٢) Realms of Being

(٣) Realm of Essence

كتبه في الانسان هو الاحساس بانه يسبح مع تيار نهر ينساب في نعومه ورقة ـ نهر عريض جدا لدرجه أنك من النادر أن ترى أيا من ضفتيه ٠ ولكن كلما لاح من وقت لآخر لسان أرض بارز في الماء أصبت بالدهشة لتصورك أن هذا البروز جديد دون أن تتنبه الى وجوده أصلا ، والسبب في ذلك عدم شعورك بحركة التيار التي تجرفك في طريقها ٠ واني لاجد نفسي عند قراءة كتبه موافقا على كل جملة أطالعها بطريقة تشبه طريقة من يسير أثناء النوم ٠ ولكنني أعجز تماما بعد أن أفرغ من قراءة بضع صفحات أن أذكر شيئا مما قرأت ٠

ورغم ذلك فاني مدين له بأفضال فلسفية معينة ، وفي شبابي كنت أتفق مع ج ٠ ا ٠ مور G.E. Moore في الاعتقاد بموضوعية الخير والشر ٠٠ ولكن نقد سنتيانا الذي تضمنه كتابه «رياح المذهب»(١) كان السبب الذي دعاني لهجران هذا الرأي رغم أنني لم أفلح أبدا في أن أصل الى ماوصل اليه من ارتياح واستقرار ٠

كتب سنتيانا في النقد الأدبي ـ وبعض ماكتب ممتاز ـ كان له كتاب اسمه «ثلاثة شعراء فلاسفة(٢) تناول فيه لوكريشس ودانتي وجوته ٠ وقد ساءه بعض الشيء أنني قلت ان معالجته للشاعرين الايطاليين تفوق معالجته للشاعر الألماني . وبدت لي كتابته عن جوته ضربا من اللف والدوران يتصارع فيه على الدوام رضاه الفكري عن جوته مع اشمئزازه النابع من مزاجه الخاص ٠ واستهواني اشمئزازه أكثر مما استهواني رضاه ـ ووددت لو انه أطلق لهذا الاشمئزاز العنان ٠

وكان يحمل لانجلترا قدرا عظيما من الحب والمودة ٠ ويستطيع أي شخص انجليزي وطني أن يطالع كتابه «مناجيات في انجلترا (٣) في لذة وحبور ٠ وكتب قصه مثل فيها أخي (الذي كان سانتيانا يكن له ودا كبيرا) دور البطل ـ كما كتب سيرة حياته في أجزاء عديدة نرجع أهميتها أساسا الى تصوير الصراع الدائر بين مزاجه الاسباني والبيئة المحيطة به في بوسطن ٠ وكان من عادته أن يزهو بأن أمه الأرملة التي تعيش في بوسطن كانت تشيع القلق في نفوس أصدقائها من أهل نيوانجلاند لعدم قيامها بعمل أي شيء يشغلها على الاطلاق ٠ وعندما جاء اليها هؤلاء الأصدقاء على هيئة وفد يستفسرون منها عن الطريقة التي كانت تصرف بها وقتها أجابت «اذن سأخبركم ـ في الصيف أحاول أن أوفر لنفسي جوا باردا وفي الشتاء أحاول أن أستمتع بالدفء» ٠ وكان اعجابه بهذه الاجابة يمنعه من أن يشعر أنه مستريح بين أهله وذويه في نيوانجلاند ٠

وكتب كثيرا عن الثقافة الأمريكية التي لم يكن يحسن الظن بها وألقى خطابا في جامعة كاليفورنيا أسماه «التقليد المهذب في الفلسفة الأمريكية»(٤) فحواه أن الحياة الأكاديمية الأمريكية غريبة عن روح أمريكا

---

(١) Winds of Doctrine
(٢) Three Philosophical Poets
(٣) Soliloquies in England
(٤) The Genteel Tradition in American Philosophy

التى وصفها بانها قوية فتية ولكنها مادية ، تجارية • وقد بدا لى خلال تجوالى فى الجامعات الامريكية انها ستصبح اكثر ملاءمة وانسجاما مع روح هذه البلاد لو أنها اتخذت ناطحات السحاب مقرا لها بدلا من الابنيه شبه القوطيه التى تحيط بارض الجامعه • وكانت هذه وجهة نظر سنتيانا أيضا ولكنى كنت اشعر على أية حال بشىء من الخلاف بيننا فقد كان سنتيانا يجد متعته فى الابتعاد والنظر الى ماحوله نظرة ملؤها الاحتقار فى حين أننى كنت أجد أن هذا الموقف ـ عندما تضطرنى الظروف اليه ـ أليم للغاية • كان الابتعاد والاحتقار السهل عيبين فيه وبسببهما استحال شخصا من الصعب لانسان ان يحمل له الحب وان امكن أن يكن له الاعجاب •

ولكن العدل وحده يقتضى مقارنة حكمى عليه بحكمه على ـ فهو يقول: «وحتى حين تكون بصيرة رسل أشد مايكون نفاذا ـ فان نفاذ رؤيته وحده السبب فى تركيز هذه البصيرة أكثر مما ينبغى • فهو يرى شيئا واحدا فى وقت واحد بجلاء غير عادى أو يرى جانبا واحدا من التاريخ أو السياسة ولكن ادراكه الواضح الجلى لهذا العنصر يعصب عينيه فيمنعه من أن يرى بقية العناصر » وانه لمن الغرابة بمكان أن يوجه الى تهمة المحافظة الدينيــة وسأترك المستمع لكى يصدر حكمه بنفسه فى هذا الصدد •

ويبدو أن سنتيانا لم يشعر على الاطلاق أنه لو قدر له النجاح فى نشر مبدأ الولاء للماضى الذى يعتنقه لأدى هذا الى خلق عالم يدب فيه الموت ـ لايكتب لأى شىء طيب النماء فيه• ولو كان يعيش فى زمن جاليليو لأوضح هوان شأنه من الناحية الأدبية بالنســـبة الى لوكريشس • ولــــكن لوكريشس كان يقدم للعالم مذهبا قديما تمتد جذوره الى عدة قرون • وانى اشك فى أن أعمال ديموقريطس وأبيقور التى تضمنت هذا المذهب عندما كان جديدا كانت تبعث على الرضا من الناحية الجمالية كما تبعثه قصــيدة لوكريشس وقد يكون من حظهما فقدان أعمالهما مما يجعل رأيى لايعدو أن يكون ضربا من الحدس والتخمين • والذى لا يحتمل الشك هو أن الجديد لايرقى أبدا فى نضجه الى مرتبة القديم • ولذلك فان عبادة مبدأ النضــــج لاتتمشى مع التفوق والامتياز الجديد• ولهذا السبب فان سنتيانا أديب أكثر منه فيلسوف •

(٧) سيدني وبياتريس وب Sidney and Beatrice Webb

كان سيدني وب وزوجته بياتريس اللذان عرفتهما عن كثب لعدد من الاعوام وشاركتهما السكن بعض الوقت ، اكثر زوجين اكتمالا وقربا والتصاقا قدر لى أن اخالطهما فى حياتى على الاطلاق . ولكنهما رغم ذلك كانا يكرهان النظر الى الحب أو الزواج بمنظار رومانس . فقد كانا يعتبران الزواج تنظيما اجتماعيا يهدف الى ملدئمة الغريزة فى اطار قانونى وفى خلال السنوات العشر الأولى من زواجهما . كان من عادة مسز وب أن تقول بين حين وآخر : « الزواج ـ كما يقول سيدنى دائما سلة مهملات تلقى فيها العواطف » . وفى السنوات التالية حدث تغيير طفيف . فقد اعتادا بوجه عام أن يدعوا زوجين لقضاء عطلة نهاية الاسبوع معهما ، وأن يخرجا بعد ظهر يوم الأحد للمشى النشيط يرافق سيدنى أثناءه السيدة ، وتصحب بياتريس السيد وعندما يصل سيدنى الى نقطة معينة أثناء المشى نجده يقول : انني أعلم تماما ما تقول بياتريس فى هذه اللحظة . انها تقول : « أن الزواج كما يذكر سيدنى دائما سلة مهملات العواطف » . ولا يعرف أحد على وجه اليقين اذا كان سيدنى قد فاه بهذه العبارة حقا أم لا .

كنت أعرف سيدنى قبل زواجه . ولكنه كان حينذاك دون ما أصبح عليه بعد الزواج بكثير . وكان تعاون كل منهما مكملا للآخر تماما . واعتدت أن أفكر ـ رغم ماقد يكون فى هذا من تبسيط للأمور يتنافى مع الواقع ـ أنها كانت توحى اليه بالأفكار التى يقوم هو بنقلها الى أعمال . وربما كان سيدنى أكثر الرجال اجتهادا ممن عرفتهم فى حياتى فعندما كانا يكتبان كتابا عن الحكم المحلى ، كانا يبعثان منشورات دورية الى سائر موظفى الحكم المحلى فى طول البلاد وعرضها للاستفسار عن بعض النقاط ، ويوضحان للموظف المختص أنه يحق له قانونا شراء كتابهما الوشيك الصدور من الأموال المخصصة للأغراض المحلية . وعندما قمت بتأجير منزلى لهما ، كان ساعى البريد ـ وهو اشتراكى متحمس ـ فى حيرة من أمره لايعرف اذا كان القيام بخدمتهما شرفا له أم مدعاة للبرم والضيق لماكانت تقتضيه هذه الخدمة من تسليم ألف رد يوميا على منشوراتهما . وقد بدأ وب حياته اصلا ككاتب من الدرجة الثانية فى الخدمة المدنية . ولكنه نجح عن طريق العمل الشاق الجبار أن يحصل على ترقية الى الدرجة الأولى . وكان رجلا جادا بعض الشىء ، لايحب المزاح فى الموضوعات التى يعتبرها مقدسة مثل النظريات السياسية . وفى احدى المناسبات قلت له انللديموقراطية ميزة واحدة على الأقل تتلخص فى أن عضو البرلمان لايمكن أن يكون أكثر غباوة من ناخبيه ، لأنه كلما ازدادت غباوته ، كان اختيار الناخبين لهدليلا على غباوة أكبر . فتضايق وب ضيقا شديدا وقال بطريقة لاذعة : « هذا هو نوع المجادلات الذى لاأحبه » .

كانت دائرة اهتمامات مسز وب أوسع من تلك التى كانت تستهوى

روجها وكانت عميقة التدين دون أن تنتمي الى اي نوع من أنواع الدين المعروفة بالأصالة والرسوخ Orthodoxy غير انها كاشتراكيه كانت تفضل كنيسة انجلترا Church of England لانها تنظيم من تنظيمات الدولة كما كانت شديدة الاهتمام بالآدميين كأفراد دون أن يقتصر اهتمامها على الأوقات التي يمكن أن يكونوا فيها ذوي فائدة ونفع فحسب وهي واحدة من تسع أخوات هن بنات رجل عصامي اسمه بوتر Potter جمع جل ثروته عن طريق بناء الاكواخ للجيوش التي حاربت في القرم . كان بوتر من اتباع هربرت سبنسر . وكانت مسز وب نتاجا ملحوظا لتطبيق نظريات ذلك الفيلسوف في التربية . وانه لما يدعو للاسف أن أمي التي كانت جارة لها في الريف ، وصفتها بأنها فراشة اجتماعية . ولكن يداعبني الرجاء في أن تغير أمي هذا الحكم لو أنها قد عرفت مسز وب فيما بعد ..
وعندما بدأت تهتم بالاشتراكية ، قررت أن تستعرض الفابيين وتختار من بينهم ، فاستعرضت بوجه خاص الثلاثة الأكثر تفوقا وامتيازا وهم : وب، وشو ، وجراهام ولاس Graham وكان اختيارها اشبه ما يكون بحكم باريس وان كان الجنس في هذه الحالة معكوسا ، ووقع اختيارها على سيدني على أنه نظير أفروديت(١) .

كان وب يعتمد اعتمادا تاما على كسب قوته في حين أن بياتريس ورثت عن أبيها ثروة تكفل لها الرغد. وكان لبياتريس- على نقيض سيدني- عقلية الطبقة الحاكمة وتفكيرها . وحين رأيا أن لديهما من المال ما يكفل لهما العيش دون حاجة الى الكدح في سبيل الرزق ، قررا أن يقفا حياتهما على الدراسة والبحث ، وفروع الدعاية الراقية . وأصابا في كلا هذين المجالين نجاحا مذهلا . وتشيد كتبهما بما بذلاه من جهد مضن وعمل شاق كما يشهد انشاء مدرسة الاقتصاد The School of Economics على مهارة سيدني وحذقه . وأنا لا اظن أن قدرات سيدني كانت ستؤتي ثمارها على هذا النحو لو لم يعضدها ثقة بباتريس بنفسها ، ومساندتها ، وسألتها ذات مرة اذا كانت قد كابدت في حداثتها، في أي وقت من حياتها ، شعورا بالخجل أو الحياء فأجابت بقولها : آه . لا . كنت أقول لنفسي اذا استشعرت في أي وقت من الأوقات جنوحي نحو الانكماش والجبن ، وأنا أدلف الى حجرة مليئة بالناس ، أنت أذكى فرد في عائلة من أذكى العائلات المنتمية الى أذكى طبقة في أذكى أمة في العالم . فماذا يفزعك أو يخيفك اذن ..

وكنت أحمل لمسز وب الود والاعجاب رغم اختلافي معها في كثير من الأمور الهامة جدا. كنت معجبا أولا وقبل كل شيء بقدراتها الهائلة الجبارة كما كنت معجبا الى جانب ذلك بكمالها واستقامتها فقد كانت تعيش من أجل أهداف عامة ، دون أن يجرفها الطموح الشخصي مطلقا — رغم أنها لم تكن تخلو منه — عن هذه الأهداف وكنت أودها لأنها كانت صديقة دافئة

---

(١) يشير رسل هنا الى الأساطير الاغريقية . وفيها تتنازع ثلاث ربات على لقب الهة الجمال « فتحتكم الربات الثلاث الى باريس ليختار واحدة من بينهن ويختار باريس من بينهن فينوس أو افروديت . ويقول رسل ان الجنس في حالة مسز وب معكوس لأنها هي التي قامت بعملية الفرز والاختبار من بين سيدني وب ، وبرنارد شو ، وجراهام والاس .

عميقة على من تحمل لهم ودا خاصا ٠ولكنني كنت أختلف معها في الدين والاستعمار ، وعبادة الدولة التي كانت جوهر الفابية ٠ لقد أفضت هذه العبادة بعائلة وب ، وبشو أيضا الى مااعتقدت أنه تسامح غير لائق نحو موسوليني وهتلر ، كما أنها أفضت في نهـــاية الأمر الى الاطراء الزائف المضحك بعض الشيء للحكومة السوفيتية ٠

ولكن ليس للانسان جانب واحد فحسب لاينعداه ٠ ولا تستثنى من ذلك عائلة وب نفسها ٠ فقد أبديت ذات مرة ملاحظة لشو مفادها أن وب بدا لى أنه يفتقر بعض الشيء الى المشاعر الرحيمة ٠ وأجابني شو «لا٠ أنت مخطيء تماما ٠ فقد كنت دات مرة أستقل مع وب تراما في هولندا ٠ وكنا نأكل البسكوت من حقيبة نحملها معنا حين دخل عربة الترام مجرم يرسف في الأغلال ، يقتاده رجال الشرطة ٠ فابتعد عنه الركاب جميعا في رعب وفزع ٠ ولكن وب ذهب الى السجين وقدم له البســكوت » ٠ واني أذكر هذه القصة كلما وجدت نفسي تجنح الى انتقاد أي من وب وشو بشـــكل لايستحقانه ٠

وكان هناك أناس تحمل لهم عائلة وب الكراهية ٠ فقد كانا يكرهان ويلز لأن مسلكه كان يسيء الى أخـلاق مسز وب الفيكتورية الصارمة ، ولأنه كان يسعى الى ازاحة وب عن عرش الجمعية الفابية التي كان يرأسها كما كانا يكرهان رامزى ماكدونالد Ramsay Mac Donald منذ باديء الأمر : وكان أقل شيء عدائي سمعته عنه على الاطلاق من أي منهما عند تكوين أول حكومة عماليه ٠ فقد قالت عنه مسز وب انه ليس زعيما لكنه بديل صالح لزعيم ٠

وكان تاريخهما السياسي غريبا بعض الشيء ٠ ففي أول الامر كانا يعملان مع المحافظين لأن آرثر بالفور Arthur Balfour راق مسز وب بسبب استعداده لزيادة مخصصات مدارس الكنيسة من الخزانة العامه ٠ وعندما سقطت حكومة المحافظين في عام ١٩٠٦ بذل وب وزوجته جهدا طفيفا ، غير فعال للتعاون مع الأحرار ٠ ولكن بدا لهما أنهما قد يرتاحان كاشتراكيين في جو حزب العمال أكثر من ارتياحهما في أي جو آخر ٠ وفي السنوات الأخيرة من حياتهما ، أصبحا عضوين يدينان بالولاء لهذا الحزب ٠

واستمرت مسز وب تدمن الصيام لعدد من الأعوام لبواعث بعضهـــا صحي ، وبعضها ديني ٠ وكانت ترفض أن تتناول طعام الافطار ، وتكتفي بتناول عشاء خفيف للغاية ٠ وكانت وجبتها الرئيسية الوحيدة هي الغداء وكثيرا ماكانت تدعو عددا من الناس الممتازين المشهورين لتناول طعــــام الغداء في بيتها ٠ ولكنها كانت تحس بالجوع الشديد لدرجة أنهـــا كانت تسبق كل ضيوفها وتشرع في الأكل بمجرد أن يعلن الخدم اعداد المـــائدة٠ وكانت تؤمن مع ذلك بأن التضور جوعا يزيدها روحانية ، وأخبرتني ذات مرة أن التضور جوعا يجعلها تستمتع برؤيا بديعة ٠ فأجبتها بقولي : نعم اذا أكلت أقل مما ينبغي فسترين رؤيا ٠ واذا أفرطت في الشراب فسترين ثعابين » ٠ وأخشى أن تكون قـــد اعتبرت هـــذه الملحوظة استخفافا أو استهتارا لا يغتفر ولم يشاركها وب الجانب الديني من طبيعتها ٠ ولكنه

لم يناصب شعورها الديني العداوة فى قليل أو كثير وغم ما كان يتسببه له هذا الشعور من مضايقات أحيانا • وعندما كنت أمكث معهم فى فندق فى نورماندى ، كان من عادتها أن تلزم حجرتها لانها لم تكن تستطيع أن تتحمل منظرنا المؤلم ونحن نتناول الافطار • وكان سيدنى على كل حال يهبط الدرج لاحضار ارغفة الخبز والقهوة • وفى أول صباح لها بالفندق، أرسلت مسز وب رسالة عن طريق الخادمة تقول فيها « ليست (لدينا) زبدة يفطر بها سيدنى • وكان استعمالها لكلمة « لدينا » الدالة على الجمع مصدرا لمتعة أصدقائها •

كان كلاهما لا يؤمنان بالديموقراطية أساسا ، ويعتبران أن مهمة السياسى تتركز اما فى خداع عامة الناس أو ارهابهم • وأدركت جذور مفهوم مسز وب عن الحكم عندما رددت أمامى وصف والدها لاجتماعات المساهمين • فالوظيفة المعترف بها لمديرى الشركات المساهمة فى هذه الاجتماعات هى وقف المساهمين عند حدهم ، وكانت فكرتها عن علاقة الحكومة بالناخبين شبيهة بهذا •

وكانت القصص التى يرويها والدها عن حياته السبب فى أنها لم شعر باحترام كبير نحو العظماء • فبعد أن أتم والدها بناء اكواخ للمقر الشتوى للجيوش الفرنسية فى القرم ، توجه الى باريس ليحصل على مستحقاته • ولما كان قد أنفق كل رأسماله تقريبا فى اقامة هذه الأكواخ ، أصبح حصوله على مستحقاته أمرا هاما بالنسبة له • ولكن على الرغم من اعتراف كل واحد فى باريس بأحقيته فى الدين ، فقد تعطل صدور الشيك وأخيرا قابل اللرد براسى Brassey الذى كان قد جاء فى مهمة شبيهة بمهمته • وعندما شرح له الصعوبات التى تجابهه ضحك منه براسى وقال • « يا زميلى العزيز ، أنت لا تعرف كيف تصرف أمورك يجب عليك أن تعطى الوزير خمسين جنيها وخمسة جنيهات لكل واحد من أتباعه » • ونفذ مستر بوتر هذا بالفعل فوصله الشيك فى اليوم التالى •

ولم يكن سيدنى يتورع عن استعمال أساليب المكر والخديعة التى يعتبرها البعض مجافية لاحكام الضمير • فقد أخبرنى مثلا أنه حين كان يرغب فى حمل لجنة من اللجان على الموافقة على احدى النقاط التى تعترض عليها الأغلبية ، كان يعمد الى صياغة القرار بحيث ترد فيه النقطة التى يحتدم حولها الخلاف مرتين ، ثم يدخل فى مناظرة طويلة بشأن ورود هذه النقطة لأول مرة • وأخيرا يتكرم بالاستسلام فى ذوق ولطف • والنتيجة التى انتهى اليها هى أنه فى تسعة أعشار الحالات لم يكن أحد يلاحظ ورود نفس النقطة فيما بعد فى نفس القرار •

لقد عمل سيدنى وزوجته الشيء العظيم فى سبيل اقامة العمود الفقرى الفكرى للاشتراكية البريطانية • ويكاد الدور الذى لعباه أن يكون نفس الدور الذى لعبه أتباع بنثام من قبل فى مؤازرة الثوريين الراديكاليين • وكانت عائلة وب تشترك مع اتباع بنثام فى الاتصاف بنوع من الجفاف والخلو من العاطفة والايمان بأن مكان العواطف هو سلة المهملات • ولكن أتباع بنثام وعائلة وب على حد سواء لقنوا مبادئهم لاشياعهم المتحمسين •

واستطاع بنثام روبرت أوين Robert Owen شأنهما في ذلك شأن وب وكيرهاردي Keir Hardy أن ينجبا ذرية فكرية متزنة تماما . ولا ينبغي لانسان ان يتطلب من كل واحد سائر السجايا التي من شأنها أن تزيد من قيمة البشر . ويكفي الانسان ان يتحلى ببعض هذه السجايا وبهذا المعيار يجتاز سيدني وزوجته الاختبار . والذى لا نشك فيه أنه لولاهما لاصبح حزب العمال البريطاني اشد عنفا واكثر اضطرابا مما هو عليه الآن . . وقد تدثر بردائهما بعدهما ابن أخت مسز وب تالسير ستافورد كريبس Stafford Cripps واني أشك في ان الديموقراطية البريطانية كانت ستستطيع بدونها ان تتحمل بنفس الصبر السنوات الصعبة الشاقة التي مازلنا نمر بها حتى الآن .

٨) اللورد جون رسل Lord John Russell

ولد جدى الذى أذكره بوضوح وجلاء ــ فى الثامن عشر من أغسطس عام ١٧٩٢ ــ بعد أسبوعين من مولد الشاعر شيلى الذى انتهت حياته عــام ١٨٢٢ • وفى اللحظة التى ولد فيها جدى كانت الثورة الفرنسية قــد بدأت لتوها فى الاندلاع ــ وفى الشهر الذى رأى فيه النور ــ ســقطت الملكية • وكان قد بلغ من العمر شهرا واحدا عندما ادخلت مذابح سبتمبر الرعب والفزع فى قلوب الملكيين الانجليز • وبدأت موقعة فالمى valmy الحرب التى شنتها الثورة على الرجعية ــ والتى استمر أتونها مندلعا مدى خمس وعشرين سنة • كان موقف جدى من هذه الحرب ــ كما هو خليق بأحد أتباع فوكس(١) ــ أقرب مايكون الىمن يطلق عليه الآن اسم «الدائر فى فلك اليسار » • واشتمل كتابه الأول (الذى لم ير طريقه الى النشر) اهداء ساخرا الى بت الذى كان لا يزال حينذاك رئيسا للوزارة • وفى أثناء حرب نابليون ضد أسبانيا والبرتغال ــ سافر الى أسبانيا ــ ولــكن دون أن تعتمل فيه رغبة لمحاربة نابليون • وزار نابليون فى البا ــ وشــد الرجل العظيم أذنه كما كانت عادته • وعندما عاد نابليون من البا ألقى جدى الذى كان قد مضى على عضويته فى البرلمان عامان ــ خطابا يحض فيه على عدم مقاومته • ولكن الحكــــومة التى كانت فى أيدى التورير (المحافظين) حينذاك ــ قررت غــــير ذلك على كل حال • فوقعت معركة واترلو نتيجة لذلك وكان أعظم عمل قام به جدى هو اصدار قانون الاصلاح عام ١٨٣٢ الذى وضع بريطانيا على الطريق نحو الديموقراطية الكاملة • وعارض المحافظون هذا القانون معارضة عنيفة للغاية كادت أن تفضى الى حرب أهلية • وكان الاصطدام فى هذا الوقت بمثابة المعركة الحاســمة بين الرجعيين والتقدميين فى انجلترا • ولم ينقذ انجلترا من نشوب الثورة فيها سوى تحقيق النصر السلمى فى هذه المعركة ــ وقد كان لجدى الفضل الاكبر فى احراز هذا النصر • وبعد ذلك اشتغل بالسياسة لفترة طويلة وتولى رئاسة الوزارة مرتين ــ ولكن الفرصة لم تسنح له مرة ثانيــــة أن يتولى القيادة الحاسمة فى وقت شدة عصيبة • وفى السنوات الأخيرة من عمره ــ كان معتدلا فى تحرره فقط ــ الا فيما يتعلق بأمر واحد يتلخص فى كراهيته للأجحاف الناجم عن التفرقة المبنية على أساس دينى • ففى شبابه كان سائر الذين لا ينتمون الى عضوية كنيسة انجلترا يعانون من الاضرار السياسى الجسيم بمصالحهم • وكان اليهود بوجه خاص يستبعدون من البرلمان بمجلسيه ــ ومن وظائف كثيرة عن طريق قسم لا يستطيع أن يؤديه غير المسيحيين • ومازلت أتذكر بجلاء أننى رأيت حشدا كبيرا من الناس الذين ارتسمت على وجوههم ملامح الجدية يجتمعون على الحشائش المنبسطة أمام منزلنا يوم ٩ مايو ١٨٧٨ ــ قبل أن تفيض روحه بأيــــام قلائل • وكان الحشد يهتف ــ وتساءلت بطبيعة الحال عن السر فى هتافه

---

(١) Charles James Fox (١٧٤٩ ــ ١٨٠٦) : أحد ساسة حزب الويجز (الأحرار) المعروفين بتأييدهم للثورة الفرنسية •

ـ فعلمت انهم زعماء المنشقين غير التابعين لكنيسه انجلترا ـ جاءوا يهنئونه على مرور خمسين عاما على أول انتصار عظيم له : وهو الغاء قوانين الاختبار والمجالس Test and corporation Acts التى ستبعد الخارجين على كنيسة انجلترا من الوظائف والبرلمان . وغرست مثل هذه الاحداث ودراستي للتاريخ التى ألقت ضوءا عليها في نفسى الحب الراسخ للحريه المدنية والدينية . وبقى هذا الشعور حيا فى نفسى على الرغم من توالى الأنظمة الديكتاتورية المختلفة التى أغرت الكثيرين من أصدقائى من اليمين أو اليسار على حد سواء ..

ونظرا لوفاة والدي ـ عشت فى بيت جدى خلال السنتين الأخيرتين من حياته . وكانت حالته الصحية قد تدهورت كثيرا حتى منذ بداية هذا الوقت . ومازلت أذكره وهو يتحرك خارج البيت على كرسى بعجلات ـ كما أنى أذكره وهو جالس يقرأ فى حجرة الجلوس الخاصة به . وأنا أذكر ـ وان كانت ذاكرتى لا يعول عليها بطبيعة الحال ـ أنه كان مشغولا طيلة الوقت بقراءة التقارير البرلمانية على هيئة مجلدات تزدحم بها جدران قاعة واسعة . وكان جدى فى ذلك الوقت الذى أعود بذاكرتى اليه يفكر فى عمل يقوم به بشأن الحرب الروسية التركية فى عام ١٨٧٦ . ولكن التدهور الذى أصاب صحته جعل هذا مستحيلا .

وفى الحياة العامة كثيرا ما كانت توجه اليه تهمة البرود والخلو من العواطف . ولكنه كان فى بيته حانيا ، محبا ، شفيقا الى أقصى حد . وكان يحب الأطفال ـ وانى لا أذكر مناسبة واحدة زجرني فيها كي أتوقف عن احداث الجلبة أو قال أيا من تلك الاشياء الناهرة والناهية الآمرة التى اعتاد الناس الكبار فى السن أن يوجهوها الى الاطفال الصغار . وكان يتقن اللغويات فلم يجد أدنى مشقة فى القاء الخطب باللغة الفرنسية أو الاسبانية أو الايطالية . واعتاد أن يستغرق فى ضحك شديد وهو جالس يقرأ «دون كيشوت» فى لغتها الاصلية . وكان يحمل كسائر الاحرار من أهل زمانه الحب الرومانسى الحالم لايطاليا . وأهدته الحكومة الايطالية تمثالا يمثل ايطاليا معبرة بذلك عن امتنانها لخدماته فى سبيل قضية الوحدة الايطالية . كان هذا التمثال قائما على الدوام فى حجرة جلوسه ـ وكنت أجد فيه أعظم متعة وتسلية .

كان جدى ينتمي الى نوع من الناس انقرض الآن تماما ـ ذلك النوع من المصلحين الأرستقراطيين الذين يستمدون حماستهم من أعمال الأقدمين من الاغريق والرومان من أمثال ديمستينوس Demosthenès . وتاسيتوس Tacitus أكثر من استلهامهم أى مصدر حديث . كانوا يعبدون الهة اسمها « الحرية » ولكن ملامحها كانت غامضة مبهمة بعض الشيء . وكانوا يعتقدون أيضا فى وجود شيطان رجيم اسمه «الاستبداد» الذى كانت قسماته تتضح بصورة أكبر ـ ويتمثل فى الملوك والقساوسة ورجال البوليس خاصة اذا كانوا من الأجانب . ولقد ألهم هذا المذهب المفكرين من الثوار فى فرنسا وان كانت مدام رولان Madame Roland قد اكتشفت وهي على المقصلة بساطة هذا المذهب المفرطة وسذاجته . ان هذا المذهب هو الذى ألهم بيرون وقاده الى أن يحارب فى بلاد اليونان ـ كما

الهم مازيني وغاريبالدي والمعجبين بهم من الانجليز . وكان هذا المذهب يلبس ثياب الادب والشاعرية والرومانسية دون أن تشوبه على الاطلاق حقائق الاقتصادية القاسية التي تسود سائر التفكير السياسي الحديث .
كان جدي في طفولته يتلقى العلم على يدي مرب اسمه الدكتور كارتريت Carturight قام باختراع نول جديد كان أحد العوامل الرئيسية في قيام الثورة الصناعية . ولم يعلم جدي أبدا أنه قد اخترع هذا النول — ولكنه كان يحمل له الاعجاب للغته اللاتينية المتأنقة — وسمو عواطفه الأخلاقية الى جانب كونه أخا لأحد الثوريين من مثيري القلاقل والاضطرابات المعروفين .

كان جدي يدين بالديموقراطية كمثل أعلى ولكنه لم يكن من رأيه التعجيل بالوصول اليها بأي حال من الأحوال — فقد كان يفضل الامتداد التدريجي لحق الانتخاب . ولكني أظن أنه كان مقتنعا بانه مهما قدر لحق التصويت أن يمتد فستبقى زعامة الأحزاب الانجليزية المصلحة قاصرة على كبار العائلات المنتمية الى حزب الاحرار (الويجز) وأنا لا أعني أنه كان مقتنعا بذلك عن وعي وادراك ولكن هذا الاقتناع كان جزءا من الهواء الذي يتنسمه — وشيئا يمكن التسليم به دون جدال أو نقاش .

وكان جدي يعيش في بمبروك لودج Pembroke Lodge وهو منزل يقع في وسط ريتشموند بارك — ويبعد حوالي عشرة أميال عن وسط لندن . كان المنزل هدية من الملكة فيكتوريا اليه — منحته اياه لاستعماله مدى حياته وحياة جدتي . وفي هذا البيت عقدت اجتماعات وزارية كثيرة — كما وفد اليه كثير من الناس المشهورين . وفي احدى المناسبات زاره شاه ايران واعتذر جدي عن صغر حجم البيت فاجابه الشاه بادب « نعم انه صغير ولكنه يحوي رجلا عظيما » وفي هذا البيت قابلت الملكة فيكتوريا وعمري سنتان . وأثارت اهتمامي الشديد زيارة ثلاثة من الدبلوماسيين الصينيين بملابسهم الصينية الأنيقة الرسمية حينذاك — كما أثارت اهتمامي زيارة اثنين من المبعوثين الزنوج من ليبريا . وكانت في حجرة الاستقبال منضدة يابانية بديعة الصنع مطعمة — أهدتها الحكومة اليابانية لجدي . واصطفت على البوفيهات زهريتان ضخمتان من الصيني أهداهما اليه ملك ساكسوني . وكانت هناك مسافة ضيقة تفصل بين المائدة ودولاب الصيني — وكان محرما علي تماما أن أحشر نفسي بينهما . ولهذا كنا نطلق عليها دائما مضيق الدردنيل . كان كل ركن من أركان المنزل يقترن في ذكرياته بحادثة من أحداث القرن التاسع عشر أو بأحد الأنظمة السائدة فيه والتي تبدو الآن أثرا من آثار التاريخ البعيد كحمام الدودو Dodo الذي انقرض من الوجود . وكان كل شيء له علاقة بطفولتي جزءا من عالم ولى وانقضى تماما في يومنا الراهن — البيت الفكتوري المتنقل لم يعد الآن ملكا للملكة أو ملك بعدها لمن تشاء ولكنه تحول الى مكان عام لاحتساء الشاي . أما الحديقة التي امتلأت فيما مضى بالمخابئ والأركان القصية حيث يمكن لأي طفل أن يختبئ فقد أصبحت الآن مفتوحة على مصراعيها لعامة الناس . الدبلوماسيون المؤدبون الذين يمثلون ملوك دول اختفت لتحل محلها جمهوريات — ورجال الأدب الموقرون الذين يخطون أنفسهم

بمظاهر الأبهة والعظمة والذين بدا لهم كل قول عادى ورخيص على أنه ذو دلالة وعمق • كل هؤلاء اختفوا • وفوق هذا كله ــ اختفي الاقتناع المطلق بالاستقرار والثبات الذى كان يصور انتفاء التغيير فى أية رقعة من العالم على أنه بديهية مسلم بها لا تقبل النقاش أو الجدل • ولا يستثنى من ذلك غير التطور المنظم التدريجي فى أنحاء الدنيا كلها نحو دستور يشبه دستور بريطانيا بالضـــبط • فهل كان هنـــــاك فى أزمنة التاريـــخ عصر مثل هذا العصر الذى عصب عينيه فى سعادة وانتشاء دون أن يتنبـــه الى أحداث المستقبل ؟ لقد تنبأت كاسندرا Cassandra (١) بحـــق بحلول المصائب فلم يصدقها أحد • وتنبأ أهل العصر الذى عاش فيه جدى تنبؤا زائفا بالرفاهية فصدقهم الناس • ولو تمكن جدى من أن يعود مرة ثانيه الى عالمنا الراهن لأصابته أحداث القرن العشرين بالدهشة أكثر ممـــا تصيب جده أحداث القرن التاســع عشر ، لأنه يصعب على الذين شبوا وترعرعوا فى أحضان تقليد قوى راسخ أن يتأقلموا فى العالم الراهن ، والادراك لهذه الصعوبة يجعل فى الامكان فهم كيف تتعرض الامبراطوريات التالدة والنظم العريقة فى الماضى والحاضر ــ التى بقيت على مر الدهور لأن تكتسح ويطاح بها وينتهى أمرها الى الزوال ، لأن التجربة السياسية التى تتضمنها هذه الامبراطوريات والنظم قد أصبحت بين يوم وليلة غير ذات فائدة ولا تصلح عند التطبيق • ولذلك فان عصرنا يولد الحيرة فى نفوس الكثيرين ولكنه يقدم فى نفس الوقت احتـــمال التحدى المثمر الى أولئك القادرين على الفكر الجديد والخيال الجديد •

---

(١) كاسندرا فى أساطـــير الاغريق هى ابنة ملك طروادة تنبأت بهلاك طروادة وفنائها فلم يصدقها أحد •

(٩) عظماء آخرون في حياة برتراند رسل

لقد عرفت في خلال حياتي عددا كبيرا من النساء والرجال البارزين منذ العصر الفيكتوري حتى يومنا الراهن • وقـــد دلتني تجربتي على أن أعظم الناس أثرا في التاريخ ـ باستثناء حالات قليلة ـ ليسوا على درجة عظيمة من التأثير من الناحية الشخصية ، كما أنهم لا يمنازون بشكل غير عادي بالصفات التي تجعلهم شخصيات لا تنسى • قابلت الملكة فيكتوريا مرة واحدة في حياتي في السنة الثانية من عمري ، ولست أذكر هـــذه المقابلة لسوء الحظ • ولكن الذين يكبرونني في السن لاحظوا لدهشتهم أن مسلكي في حضرتها كان ينم عن الاحترام البالغ • ومن ناحية أخرى، كنت في نفس العمر عندما قابلت لاول مرة روبرت براونيغ Robert Browning الذي كان كثير من النـــاس يعتبرونه أحسن شاعر في عصره • وقاطعت حديثه في صوت يخترق الأذن بقولي : « لكم أتمنى أن يسكت هذا الرجل عن الكلام » • وتكررت مقابلتي له في السنوات الأخيرة من حياته ، ولكني لم أجد فيه شيئا يدعو الى التبجيل • كان جنتلمانا عجوزا لطيف المعشر، عطوفا يشعر بالارتياح التام في حفلات الشاى التي تجمع السيدات اللائي في منتصف العمر ، كما كان شديد التأنق ، رقيقا ، وأليفا تماما • ولكنه كان يخلو من النار المقدسة التي يتوقع المرء أن يجدها في شاعر •

ومن ناحية أخرى كان تينسون Tennyson ، الذي كنت أراه كذلك بشكل متكرر ، يمثل دور الشاعر دائما مما أثار احتقاري له في يفاعتي • وكان من عادته أن يسير في الريف برهو وخيلاء في معطف فضفاض ، ويصر كل الاصرار على عدم رؤية الناس الذين يصادفونه في طريقه ، كما كان يستعرض المسلك اللائق بشرود ذهن الشعراء • ومن بين الشعـــراء الآخرين الذين قابلتهم ، أعتقـــد ان أكثر شخصية لا تنسى هي شخصية ارنست تولر Ernest Toller ، ويرجع هذا أساسا الى قدرته على الألم الحاد غير الشخصي • أما روبرت بروك Rupert Brooke الذي كنت أعرفه معرفة غير وطيدة فكان جميلا يتدفق بالحيوية ، ولكن هذا الانطباع الطيب كانت تشوبه مسحة من اصطناع بيرون وعـــدم اخلاصه مع قـــــدر من الزركشة والتزويق المصطنع •

وكانت لشخصية وليم جيمس من بين الفلاسفة البارزين ـ باستثناء الاحياء منهم ـ أكبر الاثر في على الاطلاق ، على الرغم من الطبيعية التامة التي اتسمت بها تصرفاته وعلى الرغم من انتفاء كل مظـاهر الشعور بأنه رجل عظيم • ولم تفلح أية محاولة من جانبه لاظهار شعوره الديموقراطي ، ورغبته في الاندماج التام مع روح عامة الناس في أن تنتقص من قـــدره كارستقراطي مطبـــوع ، وكرجل يبعث امتيازه الشخصي على الاحترام • وبعض الفلاسفة ـ ممن ليسوا بالضرورة أكثرهم كفاءة ومقدرة ـ يتركون في النفس كبير الأثر بسبب أمانتهم الفكرية •• ومن بـــين هؤلاء يضرب هنري سيدويك Henry Sidgwich الذي كان يدرس لي علم الاخلاق مثـــلا

رائعا • ففي شبابه كانت وظائف الزمالة في كامبريدج قاصرة فقط على هؤلاء الذين يرتضون التوقيع على بنود كنيسة انجلترا التسعة والثلاثين• وبعد انقضاء أعوام على توقيعها بدأت الشكوك تساوره • وعلى الرغم من أنه لم يكن ملزما بتأكيد ثباته على معتقداته ، الا أنه قرر ان واجبه يقتضي منه تقديم استقالته • وقد عجل مسلكه هذا بتغيير القانون الذى وضـع نهاية للقيود اللاهوتية القديمة • وقد كان كمدرس يظهر نفس الصدق والأمانة ، وينظر الى الاعتراضات التى يثيرها الطلبة فى أدب واهتمام كما لو كانت صادرة عن زملائه • وقد جعل هـــذا تدريسه أكثر جدوى من تدريس الكثيرين الذين يفوقونه فى الكفاءة والمقدرة •

ويتصف رجال العلم ، فى أحسن صورهم ، بنوع خاص من التأثير فى النفس منشؤه الجمع بين العقل العظيم وبساطة الاطفال • وعنـدما أقول (بساطة) لا أعنى أى شيء دال على انعـــدام الذكاء ، بل أعنى عادة التفكير فى غير الذات وبغض النظر عن الفائدة أو الخسارة الدنيوية التى يتضمنها ابداء رأى أو القيام بعمل • وقـــد كان انيشتين من بين رجال العلم الذين أعرفهم مثلا رائعا لهذه الصفة •

وفيما يتعلق برجال السياسة ، عرفت سبعة رؤساء وزارة ابتداء من جدى (الذى تولى رئاسة الوزارة فى عام ١٨٤٦) حتى المستر أتلى • وكان جلادستون ــ الذى كان معارفه يشيرون اليه (بالمستر) جلادستون ــ أكثر شخصية لا تنسى على الاطلاق • كما كان لينين الرجل الآخر الوحيد الذى عرفته فى الحياة العامة والذى يمكنني اعتباره على قدم المساواة فى أثره الشخصي مع جلادستون • كان جلادستون تجسيدا للفكر الفيكتورى كما كان لينين تجسيدا للمعادلات الماركسية ــ ولم يكن أى منهما انسانيا تماما وان كان كل منهما يملك سلطان قوة من قوى الطبيعة •

كان مستر جلادستون في حياته الخاصة يحقق هيمنته على الاخرين عن طريق جبروت عينه السريعة النفاذة التى يقصدمن ورائها اشاعةالرهبة والخوف • وكان المرء يشعر أمامه كما يشعر تلميذ صغير فى حضرةمدرس من الجيل القديم برغبة فى استسماحه قائلا « من فضلك ياسيدى ،لمأكن أنا الذى فعلت هذا » وكان كل انسان يشعر فى حضرته بمثل هذاالشعور وأنا لاأستطيع أن أتصور مخلوقا يجد فى نفسه الجرأة أن يروى له قصة يحتمل ان تثير لو جانبا ضئيلا من غضبه أو ضيقه ،فاستشباعه الاخلاقى للقصة كان كفيلا بأن يحيل الراوى الى قطعة حجر ، كانت لى جـدة هى أفظع امرأة عرفتها فى حياتى فقد كانت فرائص مشاهير الرجال ترتعـد دائما أمامها ، ولكن ذات مرة عندما كان مستر جلادستون مدعوا للشاى أخبرتنا جميعا سلفا أنها لن تسكت له بخصوص سياسته الايرلنديةالتى كانت تختلف معها بشدة ، وحضر جلادستون ، وكنت موجودا طيلةالوقت وقد تعلقت أنفاسى متوقعا الصدام المنتظر ، ولكن بالاسف ! رأيت جدتى تفيض رقة ولم تتفوه بحرف واحد يجعل الأسد يزأر ، ولم يكن ليجول بخاطر انسان أنها كانت تختلف معه على أى شيء •

وكانت أكثر تجربة مروعة مخيفة فى حياتى تتصل بالمسترجلادستون

فعندما كنت في السابعة عسرة من عمري شابا شديد الخجل والارتباك حضر عندنا جلادستون ليقضي عطله نهاية الاسبوع مـــع عائلتي ،وكنت «رجل» البيت الوحيد ، وبعد أن تناولنا الغداء ، وانسحبت السيدات طلبا للراحة ، وجدت نفسي بمفردى وجها لوجه أمام الغول ٠ وجمدت الى الحد الذى منعنى من أداء واجباتي كضيف ، ولم يفعل هو من جانبه شيئـــا يساعدنى به على التغلب على ارتباكى ، وجلسنا فى صمت لمــدة طويلة وأخيرا تنازل وأبدى ملحوظة كانت أول وآخر شيء تفوه به فقال فيصوت خفيض هادر : «نبيذ (البورت) الذى أعطوه لى جيد جدا ، ولكن لماذاقدموه الى فى الكأس المخصصة لنبيذ (الكلاريت) ؟ ومنذ ذلك الحين وأنا أواجه الرعاع الساخطين المهتاجين ، والقضاة الغاضبين ، والحكومات العـــدائية ولكنى لم أشعر قط بذلك الرعب الذى أصابنى فى تلك اللحظـــة التى جمدت الدم فى عروقى ٠

كان الاقتناع الأخلاقي العميق السر فى نفوذ المستر جلادســـتون السياسي وكانت له مهارة السياسى الذكي ، ولكنه كان مخلصا في اقتناعه أن كل مناورة من مناوراته تستلهم أشرف المقاصد وأنبل الأغراض ، وقد لخص لابوشير Labouchere الساخر شخصيتـــه فى قوله : وهو ككل سياسي ، يخفى دائما شيئا في جعبته لوقت الحاجـــه ، ولكنه يختلف عن الاخرين فى اعتقاده بأن الله هو الذى أخفاه في جعبته » وكان يداب فى جدية على استشارة ضميره والرجوع اليه كما كان ضميره .يدأب فى جدية على اسداء النصح المناسب له ٠

وتتجلى شخصيته الطاغية في القصة ــ سواء كانت حقيقية أم لا ــ التى تصور التقاءه بأحد السكارى فى اجتماع ، ويبدو أن هذا الرجـــل كان ينتمى الى الحزب السياسى المعارض لجلادستون ، وأنه دأب عـــلى مقاطعته ، وأخيرا ، جمده مستر جلادستون فى مكانه بنظرة من عينيه ، وخاطبه بهذه الكلمات : « هل يسمح لى السيد ــ الذى لم يكتف بمقاطعتى مرة ، بل دأب على مقاطعتى باعتراضاته ــ أن يوفر لى ذلك القدرالكبير من الأدب والذوق الذى كنت لاأتوانى لحظة فى توفيره له لو أننا تبادلنـــا أمكنتنا » وقد قيل ــ وأنا على استعداد تام لتصديق ماقيل ــ أن الصدمة جعلت الرجل يفيق من سكرته فالتزم الصمت خلال بقية الآمسية ٠

ومن الغريب ان نحو نصف أهل وطنه ــ بما فيهم الغالبية العظمى من الاثرياء ــ كانوا ينظرون اليه نظرتهم الى مجنون أو شرير أو الىمجنون وشرير معا ، وفى طفولتى ، كانت غالبية الأطفال الذين أعرفهم محافظه . وقد أكدوا لى فى هيبة ووقار ــ كحقيقة شـــائعة معروفة ــ أن المستر جلادستون يقوم كل صباح بطلب عشرين قبعة منأفخر القبعات من بائعين مختلفين ، الأمر الذى يضطر زوجته الى الخروج واللف على المحلات حتى تلغى هذا الطلب (كان هذا قبل استحداثالتليفون) ٠وكان البروتستانت يفترضون أنه يتآمر سرا مع الفاتيكان كما كان الأغنياء (باستثناء قـلة منهم) ينظرون اليه كما كان أكثر الأثرياء الامريكان رجعية ينظرون الى مستر روزفلت ،ولكنه ظل هادئا لايتأثر لانه لم يشك أبدا أن الرب كان

يســـانده ويؤيده • وقد كاد أن يكون الها بالنسبـــة الى نصف الأمة الانجليزية •

كان لينين الذى تحدثت معه حديثا طويلا فى موســـكو عام ١٩٢٠ يغاير جلادستون من الناحية السطحية مغايرة كبيرة ، ومع هذا فسنجد ـ اذا أدخلنا فى اعتبارنا الفرق فى الزمن والمكان والمذهب ـ أن هنـــاك صفات مشتركة كثيرة تربط الرجلين ، ولنبدأ بأوجـــه الخلاف بينهمـا كان لينين فظا قاسيا ، ولم يكن جلادستون كذلك ، لم يكن لينين يحفـل بالتقاليد أو يقيم لها وزناً ، فى حين أن جلادستون كان يكن كبير الاحترام لها • كان لينين يعتبر كل الوسائل التى تحقق انتصار حزبه مشروعة ، فى حين أن جلادستون كان ينظر الى السياسة على أنها لعبة لها قواعـد معينة يجب مراعاتها ، وفى نظرى أن كل هذه الخلافات تجعلنا نفضـــل جلادستون وعلى هذا الأساس فقد كانت لجلادستون بوجه عام آثار طيبة فى حين كانت آثار لينين مخربة مدمرة •

وعلى الرغم من كل هذه الخلافات نجد على كل حال أن أوجه الشبه بينهما كانت لاتقل فى عمقها عن أوجه الخلاف • لقد كان لينين يفترض أنه ملحد ، ولكن الصواب جانبه فى هذا ، فقد كان يعتقد أن (الجدليـــة dialectic ـ التى كان الأداة المنفذة لها ـ تسير دفة العالم ، وكان يرى نفسه مثله فى ذلك مثل جلادستون ـ على أنه المندوب البشرى لقوة فوق البشر • وكانت قسوته وجوره يتجليان فقط فيما يستخـــدم من وسائل ، وليس فيما يهدف اليه من غايات ، فهو لم يكن على استعداد لان شترى السلطان الشخصى بدفع الردة عن مذهبه ثمنا له • وكان كلا الرجلان بستمدان قوتهما الشخصية من الاقتناع الذى لايتزحزح بنزاهة شخصيتهما . ومن أجل مســـاندة مذهبيهما خاض الرجلان بســـبب جهلهمـــا فى مناطق غريبة عنهمـــا مما أثار انســـخرية منهما ، فخاض جلادستون فى نقد الكتاب المقدس • Biblical Criticism وخاض لينين فى الفلسفة •

واذا قارنا الاثنين نجد أن جلادستون يفوق لينين فى كونه شخصية لاتنسى ودليلى على ذلك ماسيعتقده المرء بخصوصهما لو قدر له أن يقابل كلا منهما فى قطار دون أن يعرف حقيقة شـــخصيته ، فانا مقتنـــع أن جلادستون فى مثل هذه الظروف كان سيبهرنى الى الحـد الذى يجعلنى أعتقد أنه أحد الرجال الذين يقابلهم الانسان فى حياته فيظلون ماثلين فى ذهنه أبدا ، وكنت سأفقد فى حضرته القدرة على الكلام وسابدو كما لو كنت متفقا معه فى كل مايقول •• أما لينين فعلى النقيض من ذلك ، كان يبدو لى فيما أعتقد متعصبا ضيق الأفق وساخرا (cynic) رخيصا •

وأنا لاأزعم أن مثل هذا الحكم سيكون فى محله ، فهو حكم جائر . لا لأنه غير صحيح ولكن لأنه ناقص • فعندما قابلت لينين لم يترك فى نفسى انطباع الرجل العظيم الذى توقعته ، فقد كانت انطباعاتى الحية هى تعصـــبه وقسوته المغولية ، وعندما سألته عن الاشتراكية فى الزراعة ، شرح لى فى سرور وابتهاج كيف انه كان يحرض الفلاحين الفقراء ضد أقرانهم الأوفر حظا «وفى الحال كانوا يعلقون لهم المشـــانق على اقرب

شجرة» ثم يقهقه ، وكانت قهقهته وهو يذكر الذين ذبحوا بهذه الطريقة تجعل بدني يقشعر •

وكانت الصفات التي تصنع الزعيم السياسى موجـــودة فى لينين بدرجة أقل وضوحا من جلادستون ، فأنا أشك اذا كان لينين يستطيع أن يكون زعيما فى الأزمنة الهادئة غ يرالمضطربة ، وكان يستمد قوته من حقيقة مفادها أنه يكاد يكون الوحيد فى أمة حائرة مهزومة الذى لم يساوره الشك ، وظل يبشر بأمل فى نصر من نوع جديد ع لىالرغم من المصيبة العسكرية التي لحقت بأمته ، وبدا أنه يدلل على صحة انجيله الذى يبشر به عن طريق العقل الهادىء الذى لاينفعل بالعواطف ، العقل الذى يعتمد على مؤازرة المنطق كحليف له ،وهكذا بدت له عواطفه وعواطف أتباعه، كما لو كانت تتمتع بتأييد العلم لها ، وكما لو كانت الوسيلة الوحيـدة التى سيتم بها خلاص العالم ، ولا بد أن روبسبير كان يملك جانبا من نفس هذه الصفة •

لقد تحدثت عن رجال كانوا بارزبن بطريقة أو أخرى ، ولكنى كنت غالبا ماأتاثر فى واقع الأمر برجال ونساء لانصيب لهم من الشهرة والشىء الذى وجدت ألا سبيل الى نسيانه هو ضرب من الصفة الأخلاقية والمعنوية يتمثل فى عدم تفكيرالانسان فى ذاته سواء فىالحياة الخاصة ، أو فى شئون الحياة العامة ، أو فى اقتفاء أثر الحقيقة ، ففى يوم من الايام التحق بخدمتى بستانى لايعرفالقراءة والكتابة، ولكنه كان نموذجا كاملا للطيبة البسيطة التى كان تولستوى مولعا بتصويرها بين الفلاحين ، وهناك انسان اسمه ا٠د٠مورل E.D.Morel لن أنساه ماحييت نظرا الى طهارة قلبه ، قد بدأ حياته ككاتب شحن بضائع فى ميناء ليفربول ، ثم بدأ يدرك الفظاعات التى ينطوى عليها استغلال الملك ليبولد فى الكونغو ، وتعين عليه حتى يعلن عن رأيه أن يضحى بوظيفته ومصدر رزقه ، وبدأ يعمل من أجـــل دعوته ، بمفرده أولا ، حتى استطاع تدريجيا على الرغم من معارضة كل حكومات أوروبا أن يثير الرأى العام ويضطر الحكومات الى الاصلاح ، ثم ضحى بالمكانة الجديدة التى اكتسبها لنفسه فى سبيل دعوته الى السلام أثناء الحرب • مما أدى الى الزج به على السجن خلال فترة الحرب •

وعاش بعد تكوين أول حكومة عمالية بوقت قصير ، واســـتبعده رامزى ماك دونالد من الوزارة حتى يصرف الناس النظر عن ماضيه هـــو فى الدفاع عن السلام •

ومن النادر أن يكون النجاح الدنيوى من تصيب مثل هؤلاء الناس ولكنهم يلهمون من يعرفونهم الحب والاعجاب اللذين يفوقان حبنا واعجابنا بمن هم أقل منهم طهارة فى القلب •

خاتمـــه

برتراند رسل ينعى نفسه

وبعد فانى أقدم للقارىء العربى ترجمة لنعى كتبه برتراندرسل منذ خمسة وعشرين عاما ، يتنبأ فيه بوفاته فى سنه ١٩٦٢ ٠ ونحن لا نريد بطبيعة الحال أن نتعجل نهاية الفيلسوف الكهل ، بل نتمنى أن يبقى ذخرا للانسانية والسلام ، وأن يمتد به العمر حتى يرى بشائر السلام تهل على هذا العالم الممزق المحموم ، فيموت قرير العين لان جهوده من أجل السلام قد طرحت وأتت بعض الثمار ٠ وأخشى ما نخشى ألا يطول به الأجل حتى يرى حمامة السلام ترفرف على كوكبنا الحزين ٠ والحافز الذى دفعنى الى اختيار النص كخاتمة لهذا الكتاب هو أن هذا النعى يلخص فى كلمات قلائل وبطريقة مجملة جوانب فى حياة الفيلسوف واتجاهاته الفلسفية ، كما يلقى ضوءا على أسلوبه الساخر الذى لم تتسع طبيعة محتويات الكتاب للتعرض له ٠ والذى لاشك فيه أن برتراندرسل امام من أئمة السخرية فى القرن العشرين ٠

نعى (١٩٣٧) (١)

بوفاة رسل الايرل الثالث (أو برتراندرسل كمـــا كان يفضل أن يسمى نفسه) فى عمر التسعين ، انفصمت حلقه تتصل بماض سحيق جدا ٠ وقد زار جده اللورد جون رسل رئيس الوزارة فى عهـــد الملكة فيكتوريا ، نابليون فى البا ٠ وكانت جدته من ناحية الأم صديقة لأرملة حفيد جيمس الثانى المطالب بعرش بريطانيا ٠ وأنتج رسل فى شبابه عملا له أهميته فى المنطق الرياضى ٠ ولكن موقفه الشاذ أثناء الحـــرب العالمية الأولى كشف عن خلل فى قدرته على الحكم المتزن مما لوث بصوره مطردة كتاباته الأخيرة ٠ وربما يرجع هذا ، ولو جزئيا على الأقل الى أنه لم يتمتع بمزايا التعليم فى مدرسة خاصة Public School ٠ ولكنه تلقى تعليمه فى منزله على أيدى مربين خاصين حتى بلغ الثامنة عشرة من عمره، عندما التحق بكلية ترينيتى بكامبريدج ، وأصـــبح فى الصف الرياضى السابع بتفوق عام ١٨٩٣ وزميلا عام ١٨٩٥ ، وفى خلال الخمسة عشر عاما التى تلت ألف الكتب التى ذاعت بسببها شهرته فى الأوساط العلمية وهى أسس الهندسة ، The Foundations of Geometry وفلسفة ليبنتز

(١) هذا النعى سينشر (أو لاينشر) فى صحيفة التيمز فى عددهـــا الصادر ١ يونيه ١٩٦٢ بمناسبة وفاتى المأسوف عليها ، وان كانت قد جاءت متأخرة ٠ وقد نشر هذا النعى الذى يتنبأ بالمستقبـــل فى اللسينر Listener عام ١٩٣٧ ٠

The principles of Mathematics ومبادىء الرياضات The philosophy of Leibnitz ومبادىء الرياضيات Principia Mathematica (بالاشتراك مع الدكتور أ . ن . هويتهد) ولا شك أن هذا الكتاب الأخير الدي كانت له اهمية قصوى فى أيامه مدين بالفضل فى كثير من تفوقه الى الدكتور (وفيما بعد البروفسور) هوينهد وهو رجل يمتاز كما تبين من كتاباته اللاحقه بتلك البصيرة والعمق الروحى اللدين خلت منهما كتابات رسل بشكل واضح ، فبراهين رسل فى الجدل رغم مافيها من ذكاء وبراعة، تتجاهل الاعتبارات السامية التى تتجاوز مجرد المنطق .

وقد أصبح هذا التجرد من العمق الروحى مؤلما بصورة واضحة خلال الحرب العالمية الاولى عندما جهر برأيه فى شذوذ مناديا بأن يهدف الساسة الى وضع نهايه للحرب بأسرع مايمكن نظرا لأوزارها (ولكن يجب القول انصافا له بانه لم يقلل على الاطلاق من شأن الشر الذى لحق ببلجيكا) ولم يكن من الممكن الوصول الى هذه النتيجة الا اذا لاذت بريطانيا بالحياد، وانتصرت ألمانيا . ويجب أن نفترض أن دراسته للرياضة جعلته ينظر الى الامور نظرة كمية خاطئة متجاهلة المبدأ الذى يقبع وراء الاشياء . واستمر طوال مدة الحرب فى حنه لانهائها تحت أية شروط مهما كانت . وجردته ترينيتى كوليدج ـ وهى محقـــــة فى ذلك ـ من أستاذيته ، وزج به فى السجن مدة بضعة أشهر من عام ١٩١٨ .

وفى عام ١٩٢٠ زار روسيا زيارة قصيرة ، ولم تترك حكومتها أثرا طيبا فيه ثم زار الصين لمدة أطول حيث استمتع بالمذهب العقلى الذى يتمثل فى حضارتها التقليدية بما فيها من رائحة زكية مازالت باقية ... رائحة كان شذاها يعطر القرن الثامن عشر (١) . وفى السنوات التالية تبدد نشاطه فى كتابات تدافع عن الاشتراكية والاصلاح التعليمى وتحبيـــذ قوانين أخلاقية خاصة بالزواج أقل تزمتا . ولكنه كان على كل حال يعود أحيانا الى موضوع لايثير اهتمام عامة الناس كما تثيرها هذه الموضوعات. وكتاباته التاريخية تخفى عن القراء عن طريق أسلوبها وعنصر الدعابة فيها سطحية المذهب العقلى البالى الذى ظل يدين به حتى آخر أيامه .

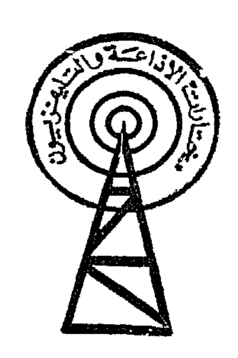
وفى الحرب العالمية الثانية ، لم يلعب دورا فى الحياة العامة ، فقـــد هرب الى دولة محايده قبل نشوب الحرب مباشرة . وكان من عادته أن يقول فى أحاديثه الخاصة ، انه من الطبيعى أن ينصرف المجانين المتعطشون للقتل الى قضاء بعضهم على بعض ، ولكن يجب على العقلاء أن يبتعدوا عن طريقهم وهم يفعلون ذلك . ولحسن الحظ أن هـــــذه النظرة التى تذكرنا ببنتام (٢) قد أصبحت نادرة الوجود فى هـــــذا العصر ، الذى يرى أن للبطولة قيمة مستقلة عن نفعها . حقا لقد أصاب الدمار الشىء الكثير من

(١) لاحظ أن القرن الثامن عشر فى أوروبا يمثل استكمال ملامح المذهب العقلى الذى يدين به رسل .

(٢) Bentham . فيلسوف انجليزى أسس المدرسة النفعية فى الفلسفة فى أوائل القرن التاسع عشر . وأهم مايميز هذا المذهب الايمان المطلق بالعقل وقيمة العلم ونبذ العواطف والدين .

العالم الذى كان متمدناً فى يوم من الأيام ولكن لا يمكن لانسان سديد الرأى أن يزعم أن الذين ماتوا من أجل الحق فى النضال العظيم قد قضوا عبثـــا ٠

وكانت حياته ، على الرغم مما فيها من شذوذ ، تتسم بالانسجام الفكرى الذى عفا عليه الدهر ، مما يذكرنا بالمتمردين الأرستقراط فى مطلع القرن التاسع عشر ٠ وكانت مبادئه غريبة ولكن هذه المبادىء كانت تهيمن على أفعاله ، ولم يظهر فى حياته الخاصـــة شيئا من المرارة التى تفسد كتاباته ، فقد كان محدثا بشوشا مرحـــا لا يخلو من العاطفة الانسانية ٠ وكان له أصدقاء عديدون ، ولكنه عاش بعد أن شيع معظمهم الى مثواهم الأخير ٠ وعلى الرغم من ذلك بدا رسل فى سنه المتقدمـــة للغاية ، للباقين من أصدقائه على قيد الحياة ، مليئا بالبهجة والاستمتاع بالحياة ويرجع هذا الى صحته الموفورة التى لم يطرأ عليها أى تغيير ، ومافى ذلك شك ٠ وقد كان معزولا فى آخر أعوامه من الناحية السياسية كمـا كان ميلتون معزولا بعد رجوع الملكية الى انجلترا ٠ وهو آخر رجل بقى على قيد الحياة من عصر ولى وانقضى ٠





١٥٧ شارع عبيد – روض الفرج
تلبفون ٤٠٥٨٨ – ٤٠٨١٤ – ٤٠٧٥٣ – ٤١٠١٢ - ٤٥٣٤٦

العـدد ١٦ الثمن ١٢